جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

السياق النصي وأثره في قصة موسى عليه السلام
من خلال سورة القصص

إعداد

د/ محمود محمد يوسف الشربيني
مدرس أصول اللغة بكلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر الشريف

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

السياق النصي وأثره في قصة موسى عليه السلام من خلال سورة القصص

محمود محمد يوسف الشربيني
قسم أصول اللغة، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: moshrbiny.203@azhar.edu.eg

الملخص:

احتل السياق بشكل عام مكانة كبيرة وجليلة بين الدراسات، لما له من أهمية بالغة في الكشف عن دلالات الألفاظ وبيان معانيها، والسياق النصي، وهو أحد معايير نظرية علم اللغة النصي، لم يقل أهمية عن سابقه، فقد بدأ على ما بناه الآخرون وإذا اكتملت عناصر السياق النصي فهو كفيل بإظهار المراد من النص كاملًا، ولما كانت نظرية السياق أحد أهم الركائز التي يفهم من خلالها المعنى، وهي من النظريات القديمة الحديثة وقد درسها العلماء قديما، وخصّوها بالتحليل والتدقيق حديثًا، وقد من الله عليّ فعرجت عليها في دراسة الدكتوراه، وأردت أن أنال حظى بدراستها منفصلة هنا، وقد شرفتُ والدراسةُ بتطبيقها على نصوص من كتاب الله عز وجل، وتحديدًا على قصة موسى عليه السلام، ودراسة السياق النصي على النصوص ثنائية الأطراف كالقصص، والرسائل، والخطابات، يتجلى فيها العلاقة بين الأطراف المتشاركة، ما بين قصدية المنشئ، ومقبولية المتلقي، وأثر ذلك على النص اللغوي والقصص القرآني –كما هو معلوم– هو أعلى النصوص فصاحة وإحكامًا، واقتضت طبيعة هذا البحث أن يندرج تحت مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس فنية.

يعقب هذا، خاتمة: ترصد أهم النتائج التي وقفت الدراسة عليها بفضل الله، وأهم ما توصل إليه البحث، ثم تذييل ذلك كله بالفهارس الفنية العامة.

الكلمات المفتاحية: السياق النصي، موسى عليه السلام، سورة القصص، الرسائل، النص اللغوي.

The textual context and its impact on the story of Moses, peace be upon him, through Surat Al-Qasas

Mahmoud Mohamed Youssef El-Sherbiny
Department of Linguistics, Faculty of Arabic Language, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: moshrbiny.203@azhar.edu.eg

Abstract:
The context in general occupies a great and honorable place among studies, because of its great importance in revealing the semantics of words and explaining their meanings, and the textual context, which is one of the criteria for the theory of textual linguistics, is no less important than its predecessor, as it began on what others built and if The elements of the textual context have been completed, as it is sufficient to show the intent of the text in its entirety, and since the context theory is one of the most important pillars through which the meaning is understood, and it is one of the ancient and modern theories, and scholars have studied it in the past, and they singled it out for analysis and auditing recently. And I wanted to have a separate study here, and I was honored to study it by applying it to texts from the Book of God Almighty, specifically to the story of Moses, peace be upon him, and to study the textual context on bilateral texts such as stories, messages, and discourses, in which the relationship between the participating parties is evident, between intentionality The originator, the acceptability of the recipient, and its impact on the linguistic text and the Qur'anic stories - as it is known - are the highest texts of eloquence and precision, and the nature of this research required that it fall under an introduction, two chapters, a conclusion, and technical indexes.
This is followed by a conclusion: it monitors the most important results that the study stood on, thanks to God, and the most important findings of the research, and then appends all of that with the general technical indexes.

Keywords: Textual context, Moses, peace be upon him, Surat Al-Qasas, Letters, Linguistic text.

المقدمـــــة

الْحَمدُ للهِ ربِ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسلينَ، سيدنَا مُحَمَّد ﷺ وعَلى آله وَأَصْحَابه أجمعينَ،

فإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون، فالقرآن بحر لا يدرك غوره، ولا تنفد درره، وَلَا يَزَالُ مَيِدَانًا رَحْبًا يرتادُه البَاحِثِونَ عَلَى كَثْرَةِ مَا قَامَ حَولَ القرآن الكريم مِنْ دِرَاسَاتٍ، فَهِو المَيدَانُ الذِّي لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُه، وَلَا تَغِيضُ مَشَارِبُه.

وقد ظهر اهتمام العلماء بالقرآن الكريم في جوانبه المتنوعة منذ نزوله فتعددت الدراسات التي تتعلق بعلومه، ومن هذه العلوم الدراسات اللغوية، فانكب علماء اللغة عليه بالدراسة والتحليل اللغوي بدءًا من أصواته وما تشمله من مخارج وصفات، وانتهاءً بأحدث النظريات اللغوية ظهورًا حتى الآن وهي نظرية علم اللغة النصي.

والسياق بشكل عام احتل مكانة كبيرة وجليلة بين هذه الدراسات، لما له من أهمية بالغة في الكشف عن دلالات الألفاظ وبيان معانيها، والسياق النصي، وهو أحد معايير نظرية علم اللغة النصي، لم يقل أهمية عن سابقه، فقد بدأ على ما بناه الآخرون وإذا اكتملت عناصر السياق النصي فهو كفيل بإظهار المراد من النص كاملًا.

ولما كانت نظرية السياق أحد أهم الركائز التي يفهم من خلالها المعنى، وهي من النظريات القديمة الحديثة وقد درسها العلماء قديما، وخصّوها بالتحليل والتدقيق حديثًا، وقد من الله عليّ فعرجت عليها في دراسة الدكتوراه، وأردت أن أنال حظى بدراستها منفصلة هنا، وقد شرفتُ والدراسةُ بتطبيقها على نصوص من كتاب الله ﷻ، وتحديدًا على قصة موسى عليه السلام، تحت عنوان **(السياق النصي وأثره في قصة موسى عليه السلام من خلال سورة القصص)**

ودراسة السياق النصي على النصوص ثنائية الأطراف كالقصص، والرسائل، والخطابات، يتجلى فيها العلاقة بين الأطراف المتشاركة، ما بين قصدية المنشئ، ومقبولية المتلقي، وأثر ذلك على النص اللغوي والقصص القرآني –كما هو معلوم– هو أعلى النصوص فصاحة وإحكامًا.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يندرج تحت مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس فنية.

المقدمة: وتناولت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والخطة التي سار عليها.

المبحث الأول: المبحث التمهيدي (النظري)

وقسمته إلى ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: السياق في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: السياق النصي وعلاقته بالقصص القرآني.

المطلب الثالث: السياق النصي وقصة موسى عليه السلام.

المبحث الثاني: وقفات سياقية نصية في قصة موسى عليه السلام

وقسمته إلى تسعة مطالب، هي:

المطلب الأول: السياق النصي في الأحوال العامة قبيل مولد موسى عليه السلام.

المطلب الثاني: السياق النصي في ميلاد موسى عليه السلام.

المطلب الثالث: السياق النصي والصفات الخِلْقِية لسيدنا موسى عليه السلام.

المطلب الرابع: السياق النصي والصفات الخُلُقِية لسيدنا موسى عليه السلام.

المطلب الخامس: السياق النصي في النداء والتبليغ.

المطلب السادس: السياق النصي في طلب العون والمؤازرة.

المطلب السابع: السياق النصي في حِجاج موسى وفرعون.

المطلب الثامن: السياق النصي في هلاك فرعون وجنوده.

المطلب التاسع: نداء للعبرة والتصديق.

يعقب هذا، **خاتمة:** ترصد أهم النتائج التي وقفت الدراسة عليها بفضل الله، وأهم ما توصل إليه البحث، ثم تذييل ذلك كله **بالفهارس الفنية العامة.**

ولست أدّعى لعملي هذا الكمال، فالكمال لله وحده، والعلم نور يهبه الله لمن يشاء من عباده، ولكن حسبي أنني أخلصت الجهد، وأعوذ بالله من فساد القصد وسوء النية. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

توطئة

السياق النصي: هو أحد معايير نظرية علم اللغة النصي، هذه النظرية التي تُعد من أحدث نظريات التحليل اللغوي، وتهتم بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط، أو التماسك ووسائله وأنواعه، والإحالة أو المرجعية (Reference) وأنواعها، والسياق النصي (Textual Context) ودور المشاركين في النص (المرسل، والمستقبل) وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حد سواء.(١)

ومع أهمية السياق في فهم النص وترجمته للمتلقي، إلَّا أن أصحاب هذه النظرية اقتصروا على نوع واحدٍ فقط من أنواعه، وهو السياق غير اللغوي، أو السياق المقامي، وأطلقوا عليه معيار المقامية.(٢)

ويرجع سبب اقتصارهم على السياق المقامي فقط –من وجهة نظري– إلى أن نظرية علم اللغة النصي طُبقت أولَ ما طُبقت على نصوص غير عربية فقد نشأت النظرية في أحضان الغرب، ولكن الأمر مختلف حين يُطبق على نصوص عربية، فإن السياق حينئذ يكون من أولويات التحليل، فهو «كالسماء للنجم؛ إذ لا وجود للنجم خارج سمائه، فكذلك ليس للنص وجود خارج سياقه.» (٣)

وتكمن أهمية السياق للنص في أنه يحدد الألفاظ المستخدمة من حيث

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (ص: ٣٤) د/ صبحي إبراهيم الفقي.

(٢) ينظر: النص والخطاب والإجراء (ص: ١٠٣– ١٠٥)، مدخل إلى علم لغة النص (ص: ١١، ١٢) دي بو جراند ودريسلر، إلهام أبو غزالة، على خليل، وعلم لغة النص (ص: ١٤٥، ١٤٦) سعيد البحيري، علم اللغة النصي (ص: ٣١) د/ صبحي إبراهيم الفقي

(٣) المعايير النصية لدى روبرت دي بو جراند في ديوان همسات الصبا (ص: ١٣١)

الشدة والسهولة، وله دور كذلك في تشكيل هذه الكلمات داخل النص.

وقد اعترف مؤسسو النظرية بالسياق وإن لم يعطوه حقه في البحث والدراسة؛ فقرر جون لاينز «أن الوحدات التي يتكون منها النص، جملًا كانت أم غير جمل ليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها البعض في سلسلة، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النص في مجمله أن يتسم بسمات التماسك والترابط.»(١)

وأكد بعضهم أنه لا ينحصر السياق بالجمل المتتابعة داخل نطاق النص فحسب، بل يعني العلاقة التي تفسّر جوانب الاتصال كلها.(٢)

أولًا: السياق في اللغة والاصطلاح

تدل مادة سوق في اللغة على «التتابع»(٣)؛ قال ابن فارس: «السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ. يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا.»(٤)

ونقل الأزهري، عن أبي عبيد: «تَسَاوَقَتِ الإبلُ تَسَاوُقاً: إذا تتابعتْ، وَكَذَلِكَ تَقَاوَدَت فَهِيَ: مُتَقَاوِدة ومتساوِقةٌ»(٥).

وأشار بعض العلماء إلى أن السياق مصدرٌ للفعل (سَوقَ)، من ذلك قولهم:

---

(١) اللغة والمعنى والسياق (ص: ٢١٩) جون لاينز، ترجمة: د/ عباس صادق الوهاب، مراجعة: د/ يوئيل عزيز، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد – العراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

(٢) المعايير النصية لدى روبرت دي بوجراند في ديوان همسات الصبا (ص: ١٣١)

(٣) ينظر: العين، الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ) (٣/ ٢٧٩) [حدأ]، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط: دار ومكتبة الهلال.

(٤) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١١٧) [سوق] ت/عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٥) تهذيب اللغة، الأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، (٩/ ١٨٥) ، ت: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى،(٢٠٠١م)[سقى]

«سُقْت الإبل أَسُوقُهَا: سَوْقًا، وسِيَاقًا»[١]

وأشار بعضهم إلى كونه « مصدرًا لـ (ساوق) على وزن فاعل التي تدل على المتابعة والموالاة ويكون حينئذ مرادفًا (للمساوقة)، التي تعني: التلازم بين الشيئين بحيث لا يتخلّف أحدهما عن الآخر، ويتبع كل منهما صاحبه.»[٢]

وللسياق معانٍ مجازية، وربما يندرج التعريف الاصطلاحي لأحد هذه المعاني، ومنها سرد الحديث وهو ما أشار إليه الزمخشري في قوله: «هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مَسَاقُة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوْقِه: على سَردِهِ»[٣]، أي: متواليًا متتابعًا، وقال–أيضا–: «سرد الحديث والقراءة: جاء بهما على ولاء»[٤]، أي: «دافَعَ بَعْضَه في إثرِ بَعْض.»[٥]

(١) ينظر: إصلاح المنطق، ابن السكيت(ت: ٢٤٤هـ)، (ص: ١٩٤)،ت: محمد مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى(١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري(ت: ٣٩٣هـ)، (٤/ ١٤٩٩)،ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين – بيروت، الرابعة(١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م).

(٢) ينظر : دلاله السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د/عبدالفتاح البركاوي (ص:٢٦)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، (٢/ ١٥٢٨) تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الأولى (١٩٩٦م)، دلالة السياق وأثرها في أسباب ورود الحديث النبوي (ص: ٢٦)، رسالة دكتوراه، إعداد الباحث/ محمد السيد سيد أحمد إبراهيم، كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨م

(٣) أساس البلاغة الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، (١/ ٤٨٤)، ت: محمد باسل عيون السود– دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– الطبعة: الأولى،(١٤١٩هـ – ١٩٩٨م).

(٤) أساس البلاغة (١/ ٤٤٩)

(٥) المحيط في اللغة ابن عباد (٨/ ٢٨٠)، ت: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط: عالم الكتب –بيروت / لبنان: الأولى (١٤١٤هـ –١٩٩٤م).

وهذا المعنى وإن كان مجازيًا فقد ارتبط بالمعنى المحوري للفظ ارتباطًا وثيقًا، إذ يدل المعنى المحوري على «الدفع إلى الأمام أو إلى أعلى بقوّة.»[١]

السياق اصطلاحًا

اختلف علماء اللغة في تحديد مصطلح السياق، وإن دار معظم كلامهم في فلك واحد، ولهذا أجد الاختلاف في التعريفات شكلية فقط، وفحواها الدلالي واحد، وهذا ما توضحه التعريفات الآتية:

عرفه بعضهم بأنه: «تتابع الكلام وتراسله في نسق»[٢]

وعرفه د/ البركاوي بأنه هو: «الذي يشمل على عناصر دلالية تستفاد من المقال والمقام جميعًا.»[٣]

ويعرفه أستاذنا د/ جبل بأنه: «مجرى الكلام واتجاهه، والمقصود هنا: مؤدى الكلام السابق واللاحق، ومقتضاه في تفسير بعض الألفاظ أو تحديد المعاني المرادة من بين معانيها» [٤]

وينقسم السياق عند د/ الموافي الرفاعي إلى شقين، «السياق اللغوي، وهو: مجموعة العناصر اللغوية في الجملة. إنه الظروف اللغوية للتركيب اللغوي.

والسياق غير اللغوي –سياق الحال، أو الموقف– وهو: الظروف غير

---

(١) المعجم الاشتقاقي (١/ ٦٦٨)

(٢) الدلالة السياقية عند اللغويين، د/ عواطف كنوش المصطفى، (ص:٥١)، ط: دار السياب، لندن، البطعة الأولى، ٢٠٠٧م.

(٣) ينظر بتصرف : دلاله السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د/عبدالفتاح البركاوي (ص:٢٦-٣٠)

(٤) المعنى اللغوي ، دراسة نظرية وتطبيقية ، د / محمد حسن جبل (ص: ٨٤، ١٤٢)، ط الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م مطبعة السعادة .

اللغوية المصاحبة للكلام » [١].

وعرف د/ عبد النعيم خليل السياق اللغوي؛ بقوله: «المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة والجملة، ويتمثل ذلك في: العلامات الصوتية والصرفية والنحوية بين هذه الكلمات على مستوى التركيب.»[٢]

ونقل د/ كمال بشر تعريف ستيفن أولمان للسياق بأنه: «النظم اللفظي للكلمة وموقعها في ذلك النظم.»[٣].

من خلال هذه التعريفات لمصطلح السياق، يمكن القول بأنه: (مجموع العناصر اللغوية وغير اللغوية، التي تساعد على تفسير الألفاظ وبيان معانيها، سواء كان ذلك من داخل النص، وهو السياق المقالي، أو من خارجه، وهو السياق المقامي.)

وأما دراسة الجانب التطبيقي للسياق النصي؛ فهو يقوم على معرفة العناصر الأساسية التي تشكل سياق خطاب أو نصًا ما، وهي: المتكلم، والمخاطب، والرسالة، والزمان، والمكان، ونوع الرسالة. وتلك هي العناصر السياقية، التي كلما توفر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات، تكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة، وتأويلها، أي: وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لها معنى.

---

(١) ينظر: فصول في علم الدلالة، أ. د/ الموافي الرفاعي(ص:٧٥)، طبعة خاصة بالمؤلف (٢٠١٦م)

(٢) نظرية السياق بين القدماء والمحدثين (ص:٣٣)، وقريب من هذا تعريف د/ حلمي خليل: «ويتمثل في الأصوات والكلمات والجمل، كما تتابع في حدث كلامي معين، أو نص لغوي.» ينظر: الكلمة دراسة لغوية معجمية (ص:١٦١)

(٣) دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان (ص: ٥٧) ترجمة د/كمال بشر ، مكتبة الشباب

ويبين الجدول الآتي عناصر تكوين سياق النص[١]:

	العناصر	دورها في سياق النص
	المرسل	منتج النص
	المتلقي	المستهدف من إنشاء النص
	موضوع النص	مدار الحدث النصي أو الفكرة المحورية للنص
	المقام	زمن ومكان الحدث التواصلي
	القناة	الواسطة التي تمّ من خلالها التواصل وتداول النص
	نوع النص	نثر أو شعر، خطبة أو مناظرة أو عظة أو قصة
	الغرض	ما يقصده المشاركون نتيجة الحدث التفاعلي

وإذا كان النص والسياق شديدي الاتصال بحيث يصعب فصل أحدهما عن الآخر؛ فإن من سمات النصية أنها تسمح للخطاب أن يتماسك، ليس فقط بين أجزائه بعضها البعض، ولكن يتماسك أيضاً مع سياق الموقف الخاص به؛ وبذلك فالنص هو اللغة الفعالة في سياق الموقف.[٢]

أنواع السياق:

قسم بعض العلماء السياق: إلى عدة أقسام، وأنواع على توجهات شتى فقسمه بعضهم إلى[٣]:

-**السياق اللغوي**، وهو: معني الكلمة داخل الجملة التي هي فيها، ويشتمل على

(١) ينظر: لسانيات النص (ص: ٥٣)، والمعايير النصية لدى روبرت دي بوجراند (ص: ١٣٤)

(٢) علم لغة النص النظرية والتطبيق (ص: ١)

(٣) دلالة السياق وأثرها في أسباب ورود الحديث النبوي (ص: ٢٦)

مكونات:

-**السياق الصوتي:** يتعلق بدراسة الصوت داخل سياقه.

-**السياق الصرفي:** يتعلق ببنية الكلمة وعلاقتها بالمعنى.

-**السياق النحوي:** يتعلق بالضبط الذي يضبط المعني.

-**السياق المعجمي:** يتعلق بمعاني المفردات التي تشكل مفهوم النص.

-**السياق الأسلوبي:** يتعلق بالأسلوب نفسه.

-**السياق العاطفي:** يتعلق بالدلالة العاطفية من ذلك درجات الانفعال وغيرها.

-**سياق الموقف:** يدل على العلاقة الزمانية والمكانية التي تجرى فيها الكلام.

-**السياق الثقافي:** ويتعلق بتحديد المحيط الثقافي الذي تستخدم فيه الكلمة.

-**السياق التداولي:** ويتكون من كل العوامل النفسية والاجتماعية والتي تحدد بدقة مناسبة أفعال اللسان وغير ذلك.

-**السياق الإدراكي:** ومعناه فهم النصوص.

-**السياق النفسي:** ومعناه تأثير النصوص في المتلقين.

-**السياق الاجتماعي:** ومعناه علاقة السياق بالظروف المحيطة.

-**السياق الثقافي:** وذلك بالنظر إلى النص كظاهرة ثقافية.[١]

والناظر إلى هذه الأنواع مع كثرتها يجدها تندرج تحت نوعين اثنين، هما: السياق المقالي (اللغوي)، والسياق المقامي (غير اللغوي)

(١) ينظر بتصرف واختصار: السياق والنص: استقصاء دور السياق في تحقيق التماسك النصي. أ.فطومة لحمادي (ص: ٩ – ١٥)، مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد/ الثاني والثالث ، ٢٠٠٨م)،الدلالة السياقية عند اللغويين، أ.د عواطف كنوش المصطفى،(ص:٥٢-٨٥)، دار السياب، لندن،(٢٠٠٧م)

أ . السياق المقالي (اللغوي) .

وهو: «النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، ويشمل هذا النظم: الكلمات، والجمل السابقة واللاحقة للكلمة، والتركيب، بل يشمل النص الذي ترد فيه، والتعبير المتضمِّن لذلك النص.»[١]

ويتعلق بالمكونات اللغوية وأسلوب نظمها وتركيبها، وتعلُّق الجمل والعبارات ببعضها البعض، وعلاقة هذه الصيغ والتعابير بموضوع النص.[٢]

ب . السياق المقامي (غير اللغوي)

وهو: «مجموع الظروف والملابسات التي يقع فيها الكلام، وتحيط به وتكتنفه، أي: المكان الذي وقع فيه الكلام، والزمان كذلك، والأشخاص الذين يتبادلون الكلام وحاضروهم، وموضوع الكلام نفسه بكل ما يتصل به.»[٣]، ويشمل: العوامل الخارجية المتمثلة في الظروف والخلفيات المحيطة بالنص؛ كالسياق الاجتماعي والنفسي، والثقافي.[٤]

ثانيًا: السياق النصي وعلاقته بالقصص القرآني.

يظهر السياق النصي جليًا في النصوص ثنائية الأطراف كالقصص والخطابات والرسائل؛ حيث يتجلى فيها العلاقة بين الأطراف المتشاركة، ما بين قصدية المنشئ، ومقبولية المتلقي، وأثر ذلك على النص اللغوي والقصص القرآني –كما هو معلوم– هو أعلى النصوص فصاحة وإحكامًا.

---

(١) ينظر : دور الكلمة في اللغة: (ص:٥٧).

(٢) المعايير النصية لدى روبرت دي بو جراند في ديوان همسات الصبا (ص: ١٣١)

(٣) الدلالات القرآنية ، د / محمد حسن جبل : (ص: ٤٩)، ط: التركي طنطا ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

(٤) ينظر: المعايير النصية لدى روبرت دي بو جراند في ديوان همسات الصبا (ص: ١٣٢)، ودلالة السياق وأثرها في أسباب ورود الحديث النبوي (ص: ٩٥)

وقد أشار بعضهم إلى العلاقة بين القصص القرآني والسياق؛ وذلك في قوله: «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدى بها. تنسيقا للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.»(١)

فقد ربط رحمه الله القصة بسياقاتها الداخلية (المقالية) والخارجية (المقامية) ثم أزال اللبس الذي يظنه البعض في تكرار القصص القرآني فعقَّب بقوله: «ويحسب أناس أن هنالك تكرارا في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القَدْر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار.»(٢)

وتابعه فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله وزاد الأمر وضوحًا في أنه لا يوجد تكرار متطابق تطابقًا تامًا في القرآن الكريم، وما يظنه البعض كذلك قد غفلوا عن ماهية ذكر القصة في موضعها وسياقها والغرض منها، ومما قال: «فليس في القرآن تكرار، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .»(٣)

و«من المواضع التي ظنوا بها تكراراً قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٥٥) د/ سيد قطب، دار الشروق، ط ٣٢، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م
(٢) السابق نفسه.
(٣) تفسير الشعراوي (١١/ ٦٦٤٨)

أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] .

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩] .

والمستشرقون أحدثوا ضجة حول هذه الآيات: لأنهم لا يفهمون أسلوب القرآن، وليست لديهم الملَكَة العربية للتلقِّي عن الله، فهناك فَرْق بين السياقين، فالكلام الأول: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] هذه أحداث لم تقع بعد، إنها ستحدث في المستقبل، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ.

أمّا المعنى الثاني فهو مباشر للأحداث وقت وقوعها؛ لذلك جاء في عبارات مختصرة كأنها برقيات حاسمة لتناسب واقع الأحداث:

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: ٣٩]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١)

كما أن الآية الأولى ذكرت: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] ولم تذكر التابوت كما في الآية الأخرى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: ٣٩]

إذن: ليس في المسألة تكرار كما يدَّعي المغرضون؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة.»[١]

أما علماء لغة النص فقد قبلوا وجود التكرار ووظفوه بحسب أهميته في النص وجعلوا التكرار من الروافد التي تعطي النص قوة وإحكامًا في التماسك النصي.

(١) تفسير الشعراوي (١٥/ ٩١١٦)

ومن أهمية التكرار لديهم البعث والتجديد بعد الفناء؛ كأن يذكر المتكلم عدة جمل متتالية، وبعد فترة من الحديث يكاد المستمع أن ينسى فيها ما قيل في أول الكلام؛ فيعود المتكلم ليكرر بعض ما قاله أولًا ليذكر به المستمع.(١)

والحق أن علماء العرب القدامى قد سبقوا إلى إثبات التكرار الحسن وروده في القرآن الكريم، مع بيان «أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره؛ فإن رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه؛ فانظر إلى سوابقه ولواحقه؛ لتتكشف لك الفائدة منه.»(٢)

وقد أحسن الزركشي حين ذكر مجموعة من الفوائد التي يحققها التكرار، مستشهدًا لكل فائدة بأيٍ من آيات الله ﷻ؛ فذكر منها:

١- التَّأْكِيدُ، والتَّكْرِيرَ أَبْلَغُ مِنَ التَّأْكِيدِ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي تَكْرَارِ التَّأْسِيسِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ التَّأْكِيدِ؛ كقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ [الانفطار:١٧، ١٨] فإِنَّ الثَّانِيَةَ تَأْسِيسٌ لَا تَأْكِيدٌ.

٢- زِيَادَةُ التَّنْبِيهِ عَلَى مَا يَنْفِي التُّهْمَةَ؛ لِيَكْمُلَ تَلَقِّي الْكَلَامِ بِالْقَبُولِ؛ كقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر:٣٨، ٣٩] فَإِنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ النِّدَاءَ لِذَلِكَ.

٣- إِذَا طَالَ الْكَلَامُ وَخُشِيَ تَنَاسِي الْأَوَّلِ أُعِيدَ ثَانِيًا تَطْرِيَةً لَهُ وَتَجْدِيدًا لِعَهْدِهِ؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل:١١٩]

٤- فِي مَقَامِ التَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ؛ كقوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾[الحاقة: ١، ٢]

(١) ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (ص: ٣٤١) د/ صبحي الفقي.

(٢) المثل السائر (٢/ ١٤٩)

٥- فِـي مَقَـامِ الْوَعِيـدِ وَالتَّهْدِيـدِ؛ كَقَوْلِـهِ ﷻ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾[التكاثر:٣، ٤] وَذِكْرُ "ثُمَّ" فِي الْمُكَرَّرِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْذَارَ الثَّانِيَ أَبْلَغُ مِنَ الْأَوَّلِ.

٦- التَّعَجُّبُ؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾[المدّثر:١٩، ٢٠]

٧- لِتَعَدُّدِ الْمُتَعَلَّقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن] فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ. (١)

وفي محاولة للتوفيق بين ما ذكره الإمام الزركشي ومن انتهج نهجه، وبين ما ذكره الإمام الشعراوي، يمكن القول أن التكرار بين الكلمات والجمل قد جاء ليزيد النص إحكامًا وبيانًا وإظهارًا للفوائد التي ذكرها الزركشي، أما التكرار المُضعف للنص بلا فائدة كتكرار قصة بأكملها دون اختلاف بين كلتيهما فهذا غير موجود عند بلغاء العرب فضلًا عن وجوده في القرآن الكريم -أعلى النصوص فصاحة وبيانًا.

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ١١: ١٨)

ثالثًا: السياق النصي، وقصة سيدنا موسى عليه السلام

وبعد هذه الجولة التي تناولت السياق وأنواعه، وما إلى ذلك، يجدر بنا أن نطبق ذلك على ما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام الواردة في سورة القصص.

واختيار هذه القصة في سورة القصص تحديدًا لتكون ميدانًا لتطبيق فكرة البحث، فذلك لعدة أسباب، منها:

١- أنها من أكثر القصص ورودًا في القرآن الكريم، فقد وردت في سور كثيرة «على طرق شتى، وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى.»[١]، ومع تكرارها تجد في آياتها من «عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها: مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل.»[٢]

٢- يُظهر السياق –في سورة القصص تحديدًا– مدى التقارب والتشابه بين أحداث القصة وبين ما يلاقيه المسلمون من أعدائهم، وكأن القصة جاءت لهدف جليل، وأثبت البحث في غير موضع العلاقة بين قصة موسى عليه السلام، وبين ما يدور من أحداث للنبي ﷺ والصحابة الكرام وقد نزول السورة الكريمة.

٣- عالجت سورة القصص بعض التفاصيل في قصة موسى عليه السلام لا تجدها في مكان آخر فكانت من أكثر السور شمولًا لبيان قصة موسى

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ١٩٠)

(٢) السابق

عليه السلام، ووضح البحث ذلك في موضعه.

ويجدر بي الإشارة إلى أن ما نحن بصدده هنا ليس تفسيرًا أو تأويلًا لكلام الحق سبحانه وتعالى، فهذا مجاله كتب التفسير وغريب القرآن، ولكن هذه محاولة لبيان أثر السياق النصي على وضوح القصة وما يُراد منها.

وقد قسمت المبحث التطبيقي إلى مجموعة من المطالب جمعت في طياتها القصة كاملة بحسب ورودها في سورة القصص، وفيما يأتي نعرض هذه المطالب.

المبحث الثاني: نصوص سياقية في قصة موسى عليه السلام

في هذا المبحث تطبيق السياق النصي على قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، واتبعتُ فيها الترتيب القرآني، بدءًا من الأحوال العامة قبيل مولد موسى عليه السلام، وانتهاءً بهلاك فرعون وجنوده.

وقد عالجت هذه القصة معالجة سياقية، حاولت من خلالها ربط أحداث القصة، بما مرَّ به الرسول ﷺ والصحابة من أحداث متشابهة، وأهمية السياق في بيان العلاقة بينهما، التي قد تكون سببًا وجيهًا في نزول هذه الآيات، معتمداً في هذه المعالجة على كتب المعاجم، واللغة، والتفسير.

المطلب الأول: السياق النصي في الأحوال العامة قبيل مولد موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٣ – ٦]

يستهل الحق سبحانه وتعالى هذه السورة المباركة ببيان الحالة العامة التي تسود المجتمع المصري الذي امتلأ فسادًا وظلمًا على يد فرعون فقد علا في الأرض وادعى الألوهية الكاذبة وقسَّم أهلها إلى أقسام وشيع متَّبِعًا في ذلك القاعدة الثابتة في بني البشر (فرِّق تسُد)

وجاء النص في هذا الاستهلال مُحْكَمًا، تتضافر فيه كل مقومات السياق النصي داخليًا وخارجيًا، معلنة عن الحالة العامة التي يعيشها المجتمع، والحاجة الملحة إلى إنهاء هذا الظلم، كما بين النص أن هذا التغير جاء وفق إرادة إلهية مطلقة لا يحول بينها أي إرادة بشرية مهما ملكت من أدوات.

عناصر السياق

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المتلقي	الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم
٣	موضوع النص	نظرة عامة على أحوال قوم موسى –عليه السلام– قبيل مولده تمهيدًا لسرد قصته.
٤	المقام	الفعلي (قبيل مولد موسى في مصر) والقصصي في زمن الدعوة المكيّ.
٥	القناة	الوحي (جبريل عليه السلام)
٦	نوع النص	خطاب قرآني قصصي
٧	الغرض	تثبيت قلب النبي ﷺ وبيان قدرة الله ﷻ

وتظهر عناصر السياق مترابطة لتوضح الغاية من إيراد النص الرباني وهو: تثبيت قلب النبي ﷺ وبيان أن الدائرة له وللمؤمنين، وقد بين الله ذلك قبل الشروع في سرد القصة، من باب الإجمال قبل التفصيل، وهو باب له في البلاغة مكانًا ورتبة.

ففي قول الحق ﷻ في السورة التي سبقت هذه السورة الكريمة، وهي سورة النمل: «﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١] إلى آخر السورة من التخويف والترهيب، والإنذار والتهديد، ما انجر معه الإشعار بأن سيدنا محمد ﷺ سيملك مكة ويفتحها، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من

المؤمنين.»[١]

وهذا الحكم يبرهن الله له بما يماثله من قصص فيه العبرة والتثبيت لأولي الألباب وهذا من تناسب سور القرآن بعضها ببعض فقد ختم الله ﷻ سورة النمل ببيان التمكين للنبي ﷺ وافتتح سورة القصص ببيان التمكين الذي أيَّد به موسى ومن تبعه من المؤمنين، فقصَّ على نبيه ﷺ من نظير ما «أشار إليه في قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم.»[٢]

وعناصر السياق اجتمعت لتبرهن على هذا:

فالمتكلم: وهو الحق ﷻ يوحي إلى نبيه من منبر القوة والإرادة المطلقة، التي لا تدانيها قوة، ولا يقف في وجهها متحدٍ من الثقلين، وهذه القوة هي التي مكّنت لموسى وقومه حتى من قبل أن يولد ويبعث، فقال لنبيه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

ونَمُنّ، أي نُنعم، ومَنَّ عليه منًّا: أنعم، وفِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الْمَنَّانُ» هُوَ المُنْعِمُ المُعْطِي.[٣]

وقوله ﷻ: (ٱسْتُضْعِفُوا۟) بُني الفعل فيها للمفعول، أي أن الاستضعاف قد وقع عليهم من فرعون وجنوده دون إرادتهم، وقال الخليل في «استضعفته: وجدته ضعيفاً فركبته بسوء.»[٤]، وعند الجوهري: « اسْتَضْعَفَهُ، أي عدَّه ضَعيفاً.»[٥]

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ٢٦٦)
(٢) السابق (ص: ٢٦٧)
(٣) الصحاح (٦/ ٢٢٠٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٦٥)
(٤) العين (١/ ٢٨٢)
(٥) الصحاح (٤/ ١٣٩٠)

والله ﷻ صرح لنبيه ﷺ أنه سيبدل هذا الضعف تمكينًا وقوة، بجعل بني إسرائيل هم الوارثين لهؤلاء الطغاة، وكلمة ورث كما أرجعها ابن فارس تدل على « كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ الْوِرْثُ. وَالْمِيرَاثُ أَصْلُهُ الْوَاوُ. وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصِيرَ إِلَى آخَرِينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ.»(١)

والمتلقي: وهو محمد ﷺ، ذلك النبي الذي لاقى إعراضًا وتصدية من قومه وإيذاءً شديدًا في بدء دعوته، فجاءت هذه الآيات لتبين له آخر الطريق ونهاية المطاف، وأن الله ﷻ ناصره ومُظهر دينه ولو كره هؤلاء الكافرون، فأين هم من فرعون وجنوده الذين طغوا في الأرض وظنوا أنهم غير هالكين، فكانت نهايتهم على الله يسيرة بجند من جنوده سبحانه.

أما المقام: فيظهر من كون السورة مكية أي إن هذه الآيات نزلت حين لاقى النبي ﷺ وأصحابه صنوفًا من التعذيب في مكة وكانوا بحاجة إلى ما يثبتهم في طريق دعوتهم، «وذلك أن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان المشركون يؤذونهم، فيشكون إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت هذه السورة في شأنهم لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه، ليصبروا كصبرهم وينجيهم ربهم كما أنجى بني إسرائيل من فرعون وقومه. وهذا كقوله ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١٤]»(٢)

« نزلت –إذًا– والمسلمون في مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ، هي قوة اللّه وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان. فمن كانت قوة اللّه معه فلا خوف

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٥) [ورث]

(٢) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٥٩٧)

عليه، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة اللّه عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا.»[١]

أما القناة الموصلة فهو جبريل عليه السلام أمين الوحي الذي صدق ربه فيما أُمر به فهو من الذين قال فيهم الحق ﷻ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ونزول جبريل بالقرآن إخراس لمن يدعون أن القرآن من عند محمد ﷺ ففي قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[القصص:٢] فَإِنَّهُ يَعْنِي هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، الْمُبِينُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّكَ لَمْ تَتَقَوَّلْهُ وَلَمْ تَتَخَرَّصْهُ.[٢]

«ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى...أَضَافَ الْقَصَصَ إِلَى نَفْسِهِ...وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ تِلَاوَةَ الْمَلَكِ جَارِيَةً مَجْرَى تِلَاوَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِلْمَلَكِ، وَإِنَّمَا حَسُنَ ذَلِكَ لِأَنَّ تِلَاوَةَ جِبْرِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كَانَ بِأَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ أَصْلًا أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. »[٣]

والقناة الموصلة من العناصر السياقية التي ستتكرر في وقفات القصة جميعها، فجبريل عليه السلام هو من نزل بالقرآن كله على قلب الرسول الأمين ﷺ.

ونوع النص: هو خطاب قرآني من عند الله ﷻ فيه من البيان والحكمة لمن طلب ذلك من عباده وقوله ﷻ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بِالصِّدْقِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ.[٤] والإيمان: التصديق.[٥]

(١) في ظلال القرآن . (٥/ ٢٦٧٣)
(٢) تفسير الطبري ط هجر (١٨/ ١٤٩)
(٣) تفسير الرازي (٨/ ٢٤٢)
(٤) تفسير البغوي – ط طيبة (٦/ ١٨٥)
(٥) الصحاح (٥/ ٢٠٧١)

وجاء الفعل بصيغة المضارع المبدوء بنون المتكلم لإثبات أن المتكلم هو الله ﷻ وهو تمهيد لسرد أحداث القصة مفصلة، فـ«قبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا القصص .. وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة تساوق موضوعها وأهدافها.»[١]

والغرض: من النص يظهر جليًا في كونه تثبيتًا للرسول ﷺ ومن معه من الفئة المؤمنة بالإضافة أن « الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، فيه تسلية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ووعد جميل له ولأمته.»[٢]

ففي هذا النص إشارة إلى التمكين، أي جعل لهم السلطان والقوة، وفي معاجم اللغة: « مكنه الله من الشيء وأمْكَنَهُ منه، بمعنًى. واسْتَمْكَنَ الرجل من الشئ وتمكن منه، بمعنى.»[٣] «وَمَكَّنْتُهُ مِنْ الشَّيْءِ تَمْكِينًا جَعَلْتُ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانًا وَقُدْرَةً فَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَاسْتَمْكَنَ قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَهُ مَكِنَةٌ أَيْ قُوَّةٌ وَشِدَّةٌ»[٤]

وفيه أيضًا بيان القدرة الإلهية في انتزاع الملك من فرعون وجنوده رغم تأهبهم واستعدادهم، فمعنَى حَذِرُون: خائِفُون[٥] ومن خاف من شيء استعد له وتأهب، ومن دلالات لفظ حذر الاستعداد والتأهب.[٦]

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٧٧)

(٢) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٢٢٩)

(٣) الصحاح (٦/ ٢٢٠٥)

(٤) المصباح المنير (٢/ ٥٧٧)

(٥) تاج العروس (١٠/ ٥٦٨)

(٦) المصباح المنير (١/ ١٢٦)

المطلب الثاني: السياق النصي في ميلاد سيدنا موسى عليه السلام.

قال الله ﷻ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[القصص: ٧- ١٣]

دلالة هذه الآيات مما انفردت بها سورة القصص فلم يرد في أي سورة أخرى بيان تفصيلي لمولد موسى عليه السلام وما لاقته أمه من شدة وألم اللهم إلَّا في إشارة خفيفة في سورة (طه) وكان الحوار فيها موجها إلى سيدنا موسى عليه السلام بعد مبعثه لبيان ما اخُتص به من عناية ورعاية ربانية ؛ قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٧- ٣٩]

قوله ﷻ أوحينا، «الوَحْيُ: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو أن تكلِّمه بكلامٍ تخفيه.»[1] ، وأصل « الْوَاوِ وَالْحَاءِ وَالْحَرْفِ الْمُعْتَلِّ: يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ. فَالْوَحْيُ: الْإِشَارَةُ. وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ.

(١) الصحاح (٦/ ٢٥٢٠) [وحى]

وَكُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فَهُو ۪وَحْيٌ كَيْفَ كَانَ. » [1]، وذكر أهل التفسير أن المراد بالوحي هنا الإلهام على ما سيأتي إن شاء الله.

وقوله ﷻ: ﴿ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ اقذفيه، أي اطرحيه، قال ابن فارس: «الْقَافُ وَالذَّالُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّمْيِ وَالطَّرْحِ. يُقَالُ: قَذَفَ الشَّيْءَ يَقْذِفُهُ قَذْفًا، إِذَا رَمَى بِهِ.»[2] والقَذْفُ: الرمي بالسهم والحصى والكلام.[3]

واختلف أهل اللغة في أصل التابوت، فبعضهم جعله من (تبت)، وبعضهم من (توب) وجاء أن لغة الأنصار فيه تابوه بالهاء، إلى غير ذلك.[4]

وربما نتج عن تطور لفظي عن كلمة ثابوت كما ذكر د/ جبل[5]، والتابوت: الصندوق، ومعناه المحوري: «صندوق يحفظ فيه الشيء أي يثبت حفظًا وثباتًا دائمًا.»[6]

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، تقول: «اصْطَنَعْتُ فلاناً لنفسي، وهو صَنيعَتي، إذا اصْطَنَعْتَهُ وخَرَّجْتَهُ.» [7]

هذا المشهد يبدأ في سرد «الظروف القاسية التي ولد فيها –موسى عليه السلام– وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة وضعف قومه واستذلالهم في يد فرعون .. ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عند ما يعجز عن ضربها البشر وتنصر المستضعفين الذين

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٩٣) [وحى]
(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٦٨) [قذف]
(٣) العين (٥/ ١٣٥)
(٤) ينظر: لسان العرب (١/ ٢٣٣)[تبت]، المصباح المنير (١/ ١٥٨) [حنت]
(٥) المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٤٦) [تبت]
(٦) السابق.
(٧) الصحاح (٣/ ١٢٤٦)

لا حول لهم ولا قوة وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية.

وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه.»[١]

والهدف من بداية القصة مفصلة هنا أن المعنى المقصود منها هو أن الشرّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين.[٢]

وعناصر السياق هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المتلقي	الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والمتلقي داخل القصة أم موسى عليه السلام.
٣	موضوع النص	مولد موسى –عليه السلام– والمشاهد المصاحبة لذلك.
٤	المقام	الفعلي (مولد موسى عليه السلام) والقصصي في زمن الدعوة المكيّ.
٥	القناة	الوحي (جبريل عليه السلام)
٦	نوع النص	خطاب قرآني قصصي
٧	الغرض	بيان الصعوبة التي واجهت موسى وأمه في بدء الأمر

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٧٦)

(٢) ينظر: السابق

تأتي هذه الحلقة من حلقات القصة مبينة مولد موسى عليه السلام وما صاحبه من شدة وصعوبة، فالأجواء العقلية لم تكن مناسبة أبدًا لمولد طفل في هذا التوقيت حيث توَّعد فرعون بقتل كل طفل يولد؛ تحسبًا لمجيء طفل ينهي حكمه ويزيل ملكه، فكان مولد موسى عليه السلام ونجاته صغيرًا معجزة إلهية – بحد ذاتها– فلم ينجه الله فحسب بل جعل عدوه هو الذي يربيه له وينشئه نشأة الملوك في قصره وبين خَدمه، دون علم منه أنه المَعْنِيّ بزوال ملكه وإبطال حُججه.

وفيه بيان أن الله ﷻ إذا أراد شيئًا لم يستطع أحد أن يوقف إرادته، فقد أعلم فرعون عن طريق كهنته بمجيئ غلام يكون سببًا في هلاكه، أو كما ذُكر عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة رضوان الله عليهم «أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه؛ فلهذا أمر بقتل الغلمان، وترك النسوان.» [1]

ثم يشاء الله فيكون منشأ هذا الغلام وترعرعه في نفس البيت الذي أخذ كل الحذر من هذا الأمر فسبحان من بعث موسى في بيت فرعون ولم يصبه منهم أي مكروه أو سوء.

وقد جاءت **عناصر السياق** النصي مكتملة الأركان في إظهار المراد في هذه الحقبة من القصة، ومبينة العبرة والموعظة لأولى الألباب، وهذه الغاية الكبرى من إيراد القصص القرآني، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٥) لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) تح: مصطفى عبد الواحد، الناشر: مطبعة دار التأليف – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م

ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]

والمتكلم: هو الله ﷻ وكلامه حق لا مراء فيه ، ولذلك حين أوحى إلى أم موسى لم تشك حينها في حفظ الله لابنها، فقد وعدها الله بالحفاظ عليه ورده إليها، ونهاها عن الخوف والحزن، ووَحْيُ الله لها كما قال قتادة وغير من المفسرين وَحْيُ إِلْهَامٍ، فَقَذَفَ فِي قَلْبِهَا، أَلْهَمَتْهُ، لَيْسَ بِوَحْيِ النُّبُوَّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل:٦٨][(١)]

فهذا الوحي وإن كان مخالفًا لتدابير العقل البشري، بمعنى أن من خاف على شيء جعله نُصب عينيه، ولم يرض أن يبعده من بين يديه، فما بالك بالابن الذي ملاء القلب حبًا وشغفًا، وهذا يدل على التسليم الكامل لأوامر الله من أم موسى عليه السلام؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وكادت أي، قاربت على فعله ولكنها لم تفعل؛ تقول: « كادَ يفعل كذا، يَكادُ كَوْداً ومَكادَةً، أي قارَبَ ولم يفعل. »[(٢)]

وتبدي: تُظهر، من « بَدا الأمر بُدُوًّا، مثل قَعَد قُعُوداً، أي ظَهَرَ. وأَبْدَيْتُهُ: أَظْهَرْتُهُ.»[(٣)]

فهي أوشكت على إظهار جزعها وخوفها على رضيعها، لولا أن ربط الله على قلبها، وربط على قلبها، أي شدَّ وثبَّت قلبها، فلم تجزع من قولهم: «رجلٌ

(١) تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٥٧٩)، قصص الأنبياء (٢/ ٧)
(٢) الصحاح (٢/ ٥٣٢)
(٣) الصحاح (٦/ ٢٢٧٨)، لسان العرب (١٤/ ٦٥) [بدا]

رابط الجأش، ورَبَطَ جَأْشُه، أي: اشتدّ قلبُه وحَزُم فلا يَفِرُّ عندَ الرَّوْع»[١]، وأصل « الرَّاءِ وَالْبَاءِ وَالطَّاءِ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى شَدٍّ وَثَبَاتٍ.»[٢]

والمتلقـي وهو سيدنا محمد ﷺ يتلقى ذلك في مهد دعوته، التي حفَّها الخطر من كل حدب وصوب كما حفَّ موسى الخطر من كل جانب، فبين الله له أن الذي أنجى موسى من كل ما حيك له، وأحاط به قادر على أن يحفظ نبيه ورسوله من كل ما يحيكه المشركون ومن كل ما يمكرون.

أما المتلقي داخل القصة، وهي أم موسى عليه السلام، فقد جمع الله لها في آية واحدة «أمرين، ونهيين، وبشارتين في إيجاز بليغ مُعْجز.»[٣] ، ورُوي أن الأصمعي سمع امرأةً بليغة فصيحة، فأُعجب ببلاغتها وفصاحتها، فقال لها: ما أفصحك! وما أبلغك! فأجابته: أي فصاحة، وأي بلاغة إلى جانب فصاحة وبلاغة كتاب الله ﷻ، لقد جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين؛ وذلك حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧](٤)

ليس هذا فحسب بل إن الله ﷻ ربط على قلبها فصبرت على فراق ابنها إلى حين، فقد فرغ قلبها بعد أن أرسلت ابنها إلى مجهول عنها ولا تدري ما يحدث له، وذهب بعض المفسرين أن فراغ قلبها يعني: «خلوه من كل شيء

(١) العين (٧/ ٤٢٣) [ربط]
(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٨) [ربط]
(٣) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٨٨١)
(٤) إثبات نبوة محمد ﷺ للإمام أبي العباس ضياء الدين القرطبي (ص: ١١٣)، تح/ أحمد آيات بلعيد، ط دار الكتب العلمية.

إلاَّ من أمر موسى...أو خلوه من الصبر»[١]

ومع ذهاب أبي عبيدة إلى تأويل مخالف للجمهور وفيه نكتة جميلة وهو: أن قلبها أصبح فارغًا من الحزن لعلمها أنه لم يُقتل"؛ أو لم يَغْرَق إلّا أن المقابلة في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تضعّف هذا الرأي[٢]

وهذا الاختلاف لا ينفي أن الله ﷻ أعطى لأم موسى من القوة ما ثبتها وأعانها في مواجهة المحنة التي مرت بها في طفولة وليدها عليه السلام.

أما موضوع النص: وهو مولد موسى عليه السلام وما صحب ذلك من مشاهد ففيه من العبرة لسيدنا محمد ﷺ وصحبه ما يعطيهم من الصبر ما يطلبه الواقع الذي يعيشون فيه، فالله ﷻ حين أراد أن يهلك فرعون وجنوده، أرسل لهم طفلًا رضيعًا لينشأ فيهم، ويبلغ أشده، ويُعطى الحكمة، ثم يواجههم بما عرف من الحق، وما أرسل به من ربه، وكل هذا إنما يحتاج إلى وقت طويل نسبيًا بمقاييس البشر ويحتاج إلى صبر، وهذا في رأي والله أعلم ما كان يحتاجه صحابة النبي ﷺ، فميلاد دعوة سيدنا محمد ﷺ احتاجت من أصحابها صبرًا كصبر أم موسى وثقة في نصر الله كثقتها، ورباطة جأش مستمدة من الله ﷻ كرباطة جأشها رضوان الله عليها وعليهم أجمعين.

وزمن القصة يتشابه مع زمن بداية دعوة الرسول ﷺ وما لاقت من إيذاء وإعراض من قريش والمشركين، إذن فليعلم أصحاب محمد من القصة «إن القدرة التي –ترعى موسى عليه السلام– تدبر أمره، وتكيد به لفرعون وآله فتجعلهم يلتقطونه –إلى أن يعود– الطفل الغائب لأمه الملهوفة. معافى في بدنه، مرموقا

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٤٣)

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة تح أحمد صقر (ص: ٣٢٨)

في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله.»[1] هي نفسها القدرة التي تحمي محمد ﷺ ودعوته في مواجهة البغي والطغاة.

فإذا علم المسلمون بالصعاب التي واجهها موسى عليه السلام وأمه حين كان صغيرًا وكيف صبروا ووثقوا في نصر الله؛ فقد علموا **الغرض** الذي سيقت من أجله الآيات الكريمة.

المطلب الثالث: السياق النصي والصفات الخِلْقِية لسيدنا موسى عليه السلام.

قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ١٤ ٢١]

ينتقل الحق ﷻ في لمحات هذه القصة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب ونضوج الفكر العقلي لموسى عليه السلام، ولكن ما بين المرحلتين من ترعرع موسى وقضاء فترة صباه هل كان ذلك في قصر فرعون أو لا؟ وهل يشكل هذا أهمية لرسولنا الكريم ﷺ؟

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٠)

لا شك أنه ليس بالأمر المهم الذي يجب معرفته، فمن المعروف في النص القرآني أن ما ليس له أهمية يسكت القرآن عنه.

فالآيات الكريمات عادت في الحديث عنه عند بلوغ الأشُد والاستواء، وكلمة أشده مفرد شدة، «والشِّدَّة القُوَّة والجَلادَة. والشَّديدُ: الرَّجُلُ القَوِيّ...وَبَلَغَ الرَّجُلُ أَشُدَّهُ إِذا اكْتَهَل. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ مِنْ نَحْوِ سَبْعَ عَشْرَةَ إِلى الأَربعين. وَقَالَ مَرَّةً: هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ والأَربعين.»(١)

«واستوى الرجل: إذا انتهى شبابه.»(٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ فإنه قَرَنَ بُلُوغَ الأَشُدِّ بالاستواءِ، وَهُوَ أَن يَجْتَمِعَ أَمره وَقُوَّتُهُ وَيَكْتَهِلَ ويَنْتَهِيَ شَبابُه. (٣)

ففي هذا السن المناسب أعطاه الله من لدنه حكما وعلما، « والحُكْمُ: الحِكمَة من العلم. والحَكيمُ: العالم، وصاحب الحكمة. والحَكيم: المتقِن للأمور.»(٤)

ومع هذه المنح الإلهية لموسى عليه السلام سنحاول في المعالجة النصية –هنا– بيان موقف موسى عليه السلام من فرعون وملائه، بعد ما آل إليه موسى من قوة جسدية تؤهله لحمل رسالة الله إلى فرعون وملائه، وكذا الهجرة التي هاجرها موسى إلى مدين، والتي تشبه إلى حد كبير في أسبابها هجرة الرسول محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وما في ذلك من مواقف وعبرات للرسول ﷺ وصحبه.

ومعرفة القارئ بعناصر السياق تبين له صورة متكاملة عن أجواء النص،

(١) لسان العرب (٣/ ٢٣٥)[شدد]
(٢) شمس العلوم (٥/ ٣٢٨٣)
(٣) لسان العرب (٣/ ٢٣٦) [شدد]
(٤) الصحاح (٥/ ١٩٠١) [حكم]

وتجعل فهمه أقرب وأوضح.

وعناصر السياق، هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المتلقي	الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والمتلقي داخل القصة موسى عليه السلام.
٣	موضوع النص	صفات موسى –عليه السلام– وأسباب هجرته من مصر.
٤	المقام	الفعلي (بلوغ موسى عليه السلام سن الرشد وكمال العقل)
٥	القناة	الوحي (جبريل عليه السلام)
٦	نوع النص	خطاب قرآني قصصي
٧	الغرض	بيان التجاء موسى لربه وعدم اعتماده على قوته الجسدية رغم امتلاكها

هذه الآيات التي معنا تبين أن موسى عليه السلام كان يملك بسطة في القوة الجسدية، وأنه لم يغتر بها، ولم يستغلها في إرهاب الناس والعبث بهم، بل كان دائمَ التعلق بربه، وإرجاع ما به من نعمة إلى الله ﷻ.

ومن أجمل اللمحات في هذه الآيات وصف الله موسى أنه من المحسنين، حتى لا يُخَيل لأحد حين يعلم من أمر وكز موسى للقبطي أن هذا من تجبّر أو استعلاء لموسى، فالله قد آتاه الحكمة والعلم، وهذا جزاء المحسنين عند الله ﷻ، كما يعطي هذا الوصف أن موسى عليه السلام لم يركن إلى فرعون وظلمه، ولم يأنس العيش في قصره وملذاته فكيف « تستريح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى –

عليه السّلام – ؟ وبخاصة أن أمه لا بد أن تكون قد عرّفته من هو ومن قومه وما ديانته. وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم.»[١]

والمتكلم: وهو الحق ﷻ يعطي للمتلقي وصفًا دقيقًا لشخصية الرسول الذي اصطنعه على عينه، فهو ثائر في وجه الطغيان، مقاوم للظلم ناصر للضعفاء، وسيظهر هذا في سياق الحوار بينه القبطي الذي همَّ موسى أن يبطش به وتراجع، وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله.

أما عن البنية الجسدية لسيدنا موسى عليه السلام فيبدو أنه كان يمتلك قوة جسدية كبيرة، وأنه لم يتعالَ بها على الناس، وهذا ما أشار إليه اللغويون وأهل التفسير؛ ففي الصحاح: « وَكَزَهُ مثل نَكَزَهُ، أي ضربه ودفعه. ويقال: وَكَزَهُ أيضاً: ضربه بجُمْع يَدِهِ على ذقنه.»[٢]

وفي التفسير: «الوكز الضرب بجمع اليد. والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي. مما يشي بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.»[٣]

واستعمال القرآن الكريم لفظ فاستغاثه كان له دلالته الواضحة في نصرة موسى لمن وقع عليه ظلم أو عدوان، فالألف والسين والتاء تدل على الطلب، تقول: « اسْتَغَثْتُ بِهِ فَأَغَاثَنِي فَهُوَ...مُغِيثٌ »[٤]

«فالِاسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الْغَوْثِ وَهُوَ التَّخْلِيصُ مِنْ شِدَّةٍ أَوِ الْعَوْنُ عَلَى دَفْعِ مَشَقَّةٍ. وَإِنَّمَا يكون هَذَا الطَّلَبُ بِالنِّدَاءِ فَذِكْرُ الِاسْتِغَاثَةِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ كَانَ

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨١)
(٢) الصحاح (٣/ ٩٠١) [وكز]
(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٢)
(٤) المصباح المنير (١/ ٣٣٧)

مَغْلُوبًا وَأَنَّ الْقِبْطِيَّ اشْتَدَّ عَلَيْهِ وَكَانَ ظَالِمًا إِذْ لَا يُجْبَرُ أَحَدٌ عَلَى عَمَلٍ يَعْمَلُهُ.»[1]

ودخول موسى عليه السلام المدينة تشير بأنه «كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، في وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون؟ وحين وجد رجليين يقتتلان كان أحدهما قبطيا والآخر إسرائيليا، فاستغاث الإسرائيلي بموسى فإن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر، أو من الحاشية. إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر.»[2]

والمتكلم ﷻ يوضح مرة بعد مرة ما يتصف به موسى عليه السلام دائم الرجوع والتوبة إلى ربه وهذا الشعور الذي لم يكن ليحظى به في كنف فرعون وحزبه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

وَالظَّهِيرُ: الْمُعِينُ وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] وَالْمُظَاهَرَةُ الْمُعَاوَنَةُ وَتَظَاهَرُوا تَقَاطَعُوا كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ وَلَّى ظَهْرَهُ إِلَى صَاحِبِهِ [3]

فتبين الآيات سرعة عودة موسى لربه وتمسَّكه بطلب الغفران، مما يدل على أنه نشأ على طاعة الله الواحد سبحانه وأنه لم يتخذ من فرعون إلهًا أو شريكا للحق سبحانه «فلم يلبث موسى بعد –وكز القبطي وكزةً فارق على إثرها الحياة– أن استولى عليه الندم، لما آل إليه تدخله في هذا الاشتباك، وتمنى لو أنه دفع الظالم بأيسر مما دفعه، وود لو أن الأقدار مكنته من نصرة المظلوم

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٩)

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨١) بتصرف يسير

(٣) المصباح المنير (٢/ ٣٨٧)

وإغاثته، من دون أن يقع ما وقع ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ مشيرا إلى ما استولى عليه من الحدة والغضب أثناء الحادث المذكور ﴿إِنَّهُ﴾أي الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾وتعبيرا عما أصابه من الحسرة والندم اتجه إلى ربه خاشعا مستغفرا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ على نهج آدم وزوجه، إذ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فاستجاب له ربه ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ولا عتاب بعد المغفرة.» (١)

وتستمر الآيات لتبين جانبًا مهمًا من الجوانب الدينية في شخصية موسى عليه السلام، هذا الجانب صرح به عدوه القبطي في محاورته مع موسى، وذلك حين قال له: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فتشير الآية إلى أن موسى عليه السلام اشتهر بين الناس بأنه من المصلحين، وأنه يتخذ من الصلاح والإصلاح منهجًا قويمًا ومسلكًا مستقيمًا، ويكره أن يكون من الجبارين، ومعنى « رجل جَبَّار: هو العاتي الذي يقتل على الغضب.»(٢)

وذلك أنه لما أراد أن يبطش بعدوه، ذكَّره بالصفة التي يبغيها، وقابله بضدها، وهي الفساد في الأرض والتَّجبر، حتى يعود إلى أصله، ويقوم بما اعتاد عليه من الإصلاح بين الناس.

وهذا السياق له دوره الاجتماعي في حياة النبي ﷺ والصحابة، فالمطلوب منهم أن يقابلوا إساءة المعرضين بالحسنى والصبر، وأن يُصلحوا في الأرض ليكونوا دعاة للخير، ولقد عُرف الرسول ﷺ بالفعل بينهم بالصادق الأمين، ومما

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٩٤)

(٢) شمس العلوم (٢/ ٩٧٩)

لا شك فيه أن من يتميز بهاتين الصفتين هو من الصالحين المصلحين.

وتقف بنا الآيات عند موقف شديد الصلة بما يمر به الرسول ﷺ من مؤامرات تُحاك ضده من المشركين لحبسه أو قتله أو إخراجه من بلدته الحبيبة، وبالفعل ينتهي به الحال إلى الخروج من مكة قاصدًا بلدًا ينجو فيه من القوم الظالمين.

وما حدث مع موسى عليه السلام لا يبعُد كثيرًا عن هذا ففي قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بيان بهذا التآمر الذي تم في قصر فرعون، والذي يدل على أن المؤامرة حيكت على يد فرعون سياق الآية الكريمة وما تحويه من إشارات وعلامات.

أولا: أن هذا الرجل جاء من أقصى المدينة أي من أطرافها البعيدة، وهذا يعنى أنه جاء من بيت فرعون، حيث كان فرعون يقيم في ظاهر المدينة، منعزلا بقصره عن الرعية.

ثانيا: أن هذا الرجل جاء «يسعى» أي في عجلة ولهفة، يستبق الأحداث قبل أن تفلت من يده، وتتجه اتجاها غير الذي يراد لها أن تتجه إليه، ثم لا يستطيع التصرف فيها من غير أن تثير دخانا، أو تؤجج نارا.

ثالثا: ما أسرّ به الرجل إلى موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، ففي هذا القول، الذي يملأ قلب موسى خوفا وفزعا، تهيّأ المطيّة الذلول التي يطير بها موسى، إلى حيث يختفي من مصر، دون تمهل أو توقف.

رابعا: في قول الرجل لموسى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾تحريض قوى لموسى على الفرار، وأنه إنما تلقى نصيحة ناصح أمين، يشفق عليه، ويود

الخلاص له مما تورّط فيه.[١]

«وكما دبر أعداء موسى مؤامرة للتخلص منه قبل فوات الأوان، لأنه اشتهر عنه من قبل أن ينبأ تسفيه عقائدهم الباطلة التي ليس عليها دليل ولا برهان، وتجريح تصرفاتهم الجائرة القائمة على الظلم والطغيان، فقد دبر أعداء الرسالة الإلهية التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين لرسوله الأمين، نفس المؤامرة، وعنها تحدث كتاب الله في سورة الأنفال فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وبمجرد ما اطّلع موسى على المؤامرة المدبرة للقضاء عليه من طرف فرعون وآله بادر إلى مغادرة مصر، ثقة بصدق الرجل الذي أسر إليه بذلك.»[٢]

والغرض من ذكر هذه الحقبة في القصة بهذا التفصيل، هو: توضيح أن ما يمر به الرسول ﷺ والصحابة من اضطهاد مكثف لم يكن الأول في تاريخ البشرية، ولكنها سنة الله في أرضه، كما أن خروج صحابة سيدنا محمد ﷺ ليس شرًا لهم، أو نهاية لدعوتهم ودينهم، بل إن فيه الخير الوفير والنجاة والتحصين، ولهذا فإني أرى أن نزول هذه السورة الكريمة كانت قُبيل هجرة الرسول ﷺ وصحبة؛ لتكون عونًا لهم على ما يلاقون، فلا تثبط عزائمهم، ولا تخور قواهم، وليستمدوا العون من الله، ويكون لهم في نبي الله موسى عليه السلام خير قدوة ودليل، والله أعلم.

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٣٢٩، ٣٣٠)

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٩٧)

المطلب الرابع: السياق النصي والصفات الخُلُقية لسيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٢- ٢٨]

بعد أن أنهى الله ﷻ الحديث عن صفات موسى الخِلقية، وما جرَّته عليه حين استخدمها، جاء الحديث عن صفاته الخُلُقية وما سيجني بها من أمن وطمأنينة وسلام، فسبحان من جعل القوة الخُلقية أعلى شأنًا وأوفى ثمرة من القوة الجسدية.

عناصر السياق هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المتلقي	الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.
٣	موضوع النص	أخلاق موسى -عليه السلام-.
٤	المقام	(هجرة موسى عليه السلام لمدين)
٥	القناة	الوحي (جبريل عليه السلام)
٦	نوع النص	خطاب قرآني حواري بين موسى وآخرين
٧	الغرض	بيان أثر الفطرة السليمة وحُسن الخُلق على صاحبها

بعد خروج موسى عليه السلام من أرض مصر ينازعه الخوف والترقب، كان اللجوء إلى الله هو أول ما سيطر على كيانه ولهذا: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهداه الله ﷻ إلى أرض مدين، ولا حاجة لذكر كيفية الانتقال كأن مَلَكًا أتاه على فرس وغيَّر له سُبل الطريق، طالما أن الله هو المتكفل بهدايته، فلا داعي للخوض في الوسيلة التي ورد بها إلى مدين.

و﴿وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾، أي: حضر؛ تقول: « وَرَدَ فلان وُروداً: حضر. وأوْرَدَهُ غيرُه، واسْتَوْرَدَهُ، أي أحضره...والوِرْدُ أيضاً: الوارد، وهم الذين يردون الماء.»[١]

ومدين مدينة «على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى، عليه السلام، لسائمة شعيب.»[٢]

والناظر في السياق المقامي (غير اللغوي – الخارجي) لهذه الآيات، يجد رجلًا بعيدًا عن أهله مطاردًا خائفًا ومرهقًا من طول المسير، وليس من المتوقع أن يلفت نظره امرأتان تقفان ببعض الأغنام تنتظران، إلَّا إذا كان على خُلق حسن وشهامة ومروءة.

فقد وجد موسى عيه السلام أُمَّة من الناس، «والأُمَّةُ: الجماعةُ. قال الأخفش: هو في اللفظ واحدٌ وفي المعنى جمعٌ. وكلُّ جنس من الحيوان أُمَّةُ.»[٣]، وعند ابن فارس: كُلُّ قَوْمٍ نُسِبُوا إِلَى شَيْءٍ وَأُضِيفُوا إِلَيْهِ فَهُمْ أُمَّةٌ، وَكُلُّ

(١) الصحاح (٢/ ٥٤٩) [ورد]
(٢) معجم البلدان (٥/ ٧٧)
(٣) الصحاح (٥/ ١٨٦٤) [أمم]

جِيلٍ مِنَ النَّاسِ أُمَّةٌ عَلَى حِدَةٍ. (١)

ووجد عليه السلام امرأتين تذودان، أي تسوقان وتدفعان سائمتهما عن الماء، وهذا المعنى هو ما أرجع إليه صاحب المقاييس أصل اللفظ؛ حيث يقول: «الذَّالُ وَالْوَاوُ وَالدَّالُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا تَنْحِيَةُ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ جَمَاعَةُ الْإِبِلِ. وَمُحْتَمِلٌ أَنْ يَكُونَ الْبَابَانِ رَاجِعَيْنِ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: ذُدْتُ فُلَانًا عَنِ الشَّيْءِ أَذُودُهُ ذَوْدًا، وَذُدْتُ إِبِلِي أَذُودُهَا ذَوْدًا وَذِيَادًا.»(٢)

–وهنا– يخبر الحق ﷻ نبيه ﷺ عمَّا تمتع به موسى عليه السلام من هذا خُلق حسن، وشهامة فريدة، ولم لا؟ وهو الذي اصطنعه الله على عينه.

ينطلق موسى عليه السلام نحو الفتاتين، فيسألهما سؤالًا موجزًا عن سبب وقفتهما هذه، بأبلغ الصور وأوجز الألفاظ ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فهو لا يفتح مجالًا لكثرة الكلام، وفي الوقت نفسه يحاول تقديم المساعدة بكل سماحة وأدب.

وذلك أنه لما ﴿وَرَدَ مَاءَ﴾ وهو بئر كانت لهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعةً ﴿مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تحبسان غنمهما عن الماء حتى يصدر مواشي النَّاس ﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ ما شأنكما لا تسقيان مع النَّاس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾مواشينا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ عن الماء –والصَّدَرُ: الانصراف عن الوِرْدِ وعن كلِّ أمرٍ، ويقال: صدروا وأصدرناهم. وطريق صادر في معنى يصدُر عن الماء بأهلِه، ومنه: صَدَرَ عَنِ الْمَاءِ، وَصَدَرَ عَنِ الْبِلَادِ، إِذَا كَانَ وَرَدَهَا ثُمَّ شَخَصَ عَنْهَا(٣) لأنا لا نطيق أن نستقي وأن نُزاحم الرِّجال فإذا صدروا سقينا من فضل مواشيهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ

(١) مقاييس اللغة (١/ ٢٧) [أمّ]

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣٦٥) [ذود]

(٣) ينظر: العين (٧/ ٩٥)، مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٧) [ورد]

كَبِيرٌ﴾ لا يمكنه أن يَرِدَ وأن يستقي ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أَيْ: إلى ظلِّ شجرةٍ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ »[1]

هذا ما حدث باختصار شديد، وقد سلك المفسرون في تأويل كيفية السقيا مسالك كثيرة، لا أرى أهمية في الوقوف عليها هنا، **فالغرض** الذي سيق من أجله الحدث غير معنيّ كثيرًا بتفاصيله، ولكنه معنيّ بإظهار الأخلاق السامية والمروءة العالية التي تخَلَّق بها موسى عليه السلام، وكيف تعامل مع موقف لو أنه ضرب صفحًا عنه لما سُئل عليه، وهو الغريب المطارد.

وهذا أمر متأصل في دين الله، فديننا يحثُّ على تقديم المساعدة لكل محتاج، ولو كان مشركًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]

وسياق الآيات تجعل **المتلقي** بعد هذا الموقف في حاجة ماسة لمعرفة ما حلَّ بموسى بعد تقديمه هذه المساعدة، وما الجزاء الذي ناله من الله، وهو سبحانه الذي يجازي بالإحسان إحسانًا.

والمتكلم ﷻ لم يدع **المتلقي** في حالة انتظار شديد، وخاصة بعد أن استرعى الموقف انتباهه كاملًا، فجاءت الآيات التالية تحمل في طياتها فرجًا كبيرًا لموسى عليه السلام.

وذلك أن المرأتين وجدتا من خُلُقه ومروءته ما جعلهما تَقُصان على أبيهما ما حدث بينهما وبين هذا المسافر الأمين، فكان الرد من أبيهما أنه يريد أن يلتقي بهذا المسافر ليجازيه عن حسن فعله، وربما يسمع قصته فيكون عنده حلٌّ مناسبٌ له، وهو ما حدث فعليًا.

«فجاءت إحدى الفتاتين مُوفدة من قبل أبيها تسير نحو موسى سير

(١) الوجيز للواحدي (ص: ٨١٦)

الحرائر، في حياء وخَفَر، قالت: إن أبي يدعوك ليثيبك ويكافئك على سقيك غنمنا، فلما ذهب موسى إلى والد الفتاتين وحدثه حديثه، وقصَّ عليه قصصه، وما جرى له، وسبب خروجه من مصر، وتتبع القوم له واقتفائهم أثره، وشدة حرصهم على ملاقاته والفتك به، قال له: طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا؛ فقد خرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم في بلادنا وسلمت من القوم المعتدين: يريد فرعون وقومه.»[1]

كان هذا اللقاء بمثابة انفراجة كبرى لموسى عليه السلام، وبداية الاستقرار والطمأنينة، من ناحية أخرى، كانت فترة إعداد لتحمل موسى أعباء رسالة إلهية لفرعون وملائه؛ حيث عمل موسى عليه السلام في رعي الغنم لمدة عشر سنوات، هذه المهمة التي عمل بها أكثر من نبي، وهي من أكثر المهن التي تُعلم صاحبها الصبر، وهو ما يحتاجه الرسول في تبليغ رسالة الله لقومه.

جاء هذا الإعداد في قول أبي « الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَقَى لَهُمَا مُوسَى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾: عَلَى أَنْ تُثِيبَنِي مِنْ تَزْوِيجِهَا رَعْيَ مَاشِيَتِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ، مِنْ قَوْلِ النَّاسِ: «أَجَرَكَ اللَّهُ فَهُوَ يَأْجُرُكَ، بِمَعْنَى: أَثَابَكَ اللَّهُ؛ وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَجَرْتُ الْأَجِيرَ آجُرُهُ، بِمَعْنَى: أَعْطَيْتُهُ ذَلِكَ، كَمَا يُقَالُ: أَخَذْتُهُ فَأَنَا آخُذُهُ. وَكَأَنَّ أَبَاهَا...جَعَلَ صَدَاقَ ابْنَتِهِ الَّتِي زَوَّجَهَا مُوسَى رَعْيَ مُوسَى عَلَيْهِ مَاشِيَتَهُ ثَمَانِيَ حِجَجٍ، وَالْحِجَجُ: السُّنُونُ.»[2]

وكانت هذه السنين لموسى سنين تعلم وإعداد وتصبر، ووجد فيها حسن الصحبة، وصدق النصيحة، يظهر هذا من قول الشيخ الصالح: «﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٥٨)

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٢٢٩) وينظر: العين (٦/ ١٧٣) [أجر]

أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ فِي حُسْنِ الصُّحْبَةِ وَالْوَفَاءِ بِمَا قُلْتُ، فَزَوَّجَهُ وَأَقَامَ مَعَهُ يَكْفِيهِ وَيَعْمَلُ لَهُ فِي رِعَايَةِ غَنَمِهِ»[١]

والشَّـقّ: المَشَـقَّةُ. ومنـه قولـه تعـالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل:٧] [٢]

ومن جميل ما تعرضه الآيات على مجتمعنا اليوم ما فعله هذا الرجل الصالح في «عرضه نكاحا لا يخجل منه. فيعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو اخته أو قريبته وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة!»[٣]

والغرض العام من سرد هذه الحقبة من حياة نبي الله موسى عليه السلام – في رأي– هو التسرية والتسلية للرسول ﷺ وصحبه فمن يقرأ هذه الآيات يوقن أن مع العسر يسرا، وأن مع الصبر فرجًا، وأن حسن الخُلُق هو السبيل لذلك؛ فموسى عليه السلام الذي كان مطاردًا وخائفًا يترقب، أصبح بفضل الله آمنًا في بيت رجل مبارك ، وزوجه امرأة صالحة، وقد خلَّف كل ما يشغله وراء ظهره، وهو الآن يُعد بتدبير من الله لحمل رسالة الله إلى أكبر الطغاة وأشرهم، عسى الله أن يجعل في دعوته لهم خيرًا وتوفيقًا، وهو مصداق قول الله ﷻ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

(١) تفسير ابن أبي حاتم – محققا (٩/ ٢٩٦٩)

(٢) الصحاح (٤/ ١٥٠٢) [شقق]

(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٨)

المطلب الخامس: السياق النصي في النداء والتبليغ.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص:٢٩: ٣٢]

تستمر الآيات في سرد قصة موسى عليه السلام، لتصل إلى مرحلة تُعدُ هي الأهم، فهي مرحلة تغيير جذري في حياة نبي الله موسى عليه السلام، حان الوقت ليعرف السبب الرئيسي في نشأته وإعداده هذا الإعداد الشاق، ورعاية الله له في جميع أموره.

لقد مرَّ موسى بتجارب شتى فيما مضى من عمره، وهي تجارب مختلفة متباينة، ومنها: «تجربة الرعاية والحب والتدليل. وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار. وتجربة الخوف والمطاردة والفزع. وتجربة الغربة والوحدة والجوع. وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور.»[1]

ولا شك أن هذه التجارب إنما كانت لهدف سامٍ وغاية نبيلة، فقد صقلت فيه هذه التجارب التجلَّد والصبر بالإضافة إلى تشبّعه بـ«المشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة .. إلى جانب ما آتاه اللّه حين بلغ أشده

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٩٠)

من العلم والحكمة.»[١]

لقد حان وقت النداء من الله، ووقت التبليغ والتكليف، لقد حان وقت الرسالة.

وجاءت عناصر السياق مكتملة كاشفة، وقد صورت هذا المشهد للمتلقي تصويرًا فنيًا بديعًا، ليكون جزءًا منه، وكأنه يراه رأي العين.

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المتلقي	الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وفي القصة موسى عليه السلام.
٣	موضوع النص	نداء الله لموسى عليه السلام
٤	المقام	الفعلي (البقعة المباركة في جبل الطور بسيناء ليلًا)
٥	القناة	اتصال مباشر ما بين الله ﷻ وموسى عليه السلام
٦	نوع النص	أوامر إلهية وإظهار لقدرة الله ﷻ.
٧	الغرض	تهدئة الروع، وتكليف بالرسالة

يأتي هذا المشهد من القصة بتفاصيل دقيقة لا تراها في مكان آخر، كما أن بعض المشاهد في القصة لم تأخذ حيزًا كبيرًا في التفصيل والتوضيح.

وجاء السياق مبينًا العناية الإلهية في حوار موسى مع ربه، وكيف أبدله بالخوف أمنًا، وبالرهب سكينة وطمأنينة، ليكون بعد هذا الحوار الرباني على أتم الاستعداد لمواجهة أعتى طاغية على وجه الأرض في زمانه، وأشدهم إذلالًا لقومه، واستعبادًا لهم.

(١) السابق.

وهذه الآيات متصلة بسياق الآيات السابقة عليها، فبعد أن قضى[١] موسى عليه السلام أوفى الأجلين المتفق عليهما[٢] أخذ أهله وأقفل عائدًا إلى مصر، وأغلب الظن أن حبَّه لأمه وأخوته حركا في قلبه الشوق، وفق تدبير إلهي؛ ليذهب موسى إلى المكان المقدر له، ويلتقي بالموضع الذي ينطلق منه هاديًا ومبشرًا لبني إسرائيل.

وفي قول الله تعالى ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ يقول د/ جبل: «قالوا آنس الشخص واستأنسه: رآه وأبصره"، –ثم أضاف قيدًا في الآية هنا– هو قوله: أن إيناس النار هو رؤيتها من بعيد، وإيناس الصوت هو سماع صوت خفي.»[٣]

«والجَذْوَةُ والجُذْوَةُ والجِذْوَةُ تعني: الجمرةُ الملتهبة، والجمع جِذىً وجُذىً وجَذىً. قال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي قطعة من الجمر. قال: وهي بلغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: الجِذْوَةُ مثل الجِذْمَةِ، وهي القطعة الغليظة من الخشب، كانَ في طرفها نارٌ أو لم يكنْ.»[٤]، فموسى أراد المجيء بعود فيه نار للإنارة والدفء.

ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ واصْطَلَى بِهَا: اسْتَدْفَأَ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: جاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنهم كَانُوا فِي شِتاءٍ فَلِذَلِكَ احتاجَ إِلَى الاصْطِلاءِ.[٥]

---

(١) قضى: أي أدى وأنهى ينظر: الصحاح (٦/ ٢٤٦٣)

(٢) لَمْ يَذْكُرِ الْقُرْآنُ أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ بِتَعْيِينِهِ غَرَضٌ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «قَضَى أَوْفَاهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ.» ينظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١١١)

(٣) المعجم الاشتقاقي (٢/ ٦٢٩)

(٤) الصحاح (٦/ ٢٣٠٠)

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١٠٨)، ولسان العرب (١٤/ ٤٦٨)

«ومن حكمة الله وقدَره العجيب أن الطقس كان باردًا يتوقف على التدفئة، وأن الجو كان قاتما يتوقف على الإنارة، فاحتاج موسى إلى نور ونار، وبينما هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي رأى نارًا تضيء على بعد، وكان في رؤيته لها نوع أنس ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ وبينما كان موسى يتوقع العثور على نار للتدفئة ونور للإضاءة، إذا به يفاجأ بما لم يكن في الحسبان، ويتبين له ان النار التي تخيلها من بعيد إنما هي شجرة خضراء، وجهته القدرة الإلهية نحوها، ليتلقى من خلالها نداء الرحمن.»[1]

والسياق اللغوي لدي المتكلم هنا يُظهر مدى دقة التوظيف للألفاظ، منها، مناداة الحق ﷻ لموسى عليه السلام في بدء الحوار باسمه ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ؛ ليبعث في قلبه الطمأنينة؛ لأن النفس تخشى من المجهول، وإن كان الذي يناديه يعرف اسمه؛ فهو إذن ليس بمجهول عنه.

ومنها تصريح الله تبارك وتعالى بأنه المتكلم ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لتكتمل لدى موسى عليه السلام المعرفة، ويزول عنه الخوف، وتستكين نفسه.

والمتلقي في هذه الحالة وهو موسى عليه السلام ما بين ذهول وخشوع، فيعاجله الله ﷻ بأمر يخرجه من حالته هذه إلى ما هو أهم وأعظم فأمره بإلقاء العصا، لتتحول إلى جان.

والجآن هنا: «الصغِيرُ مِن الحَيَّاتِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ جَاءَ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:١٠٧] أَيْ عَظِيمٌ، فَالجَوابُ عَن ذلِكَ أَنَّ خَلْقَهَا خَلْقُ الثُّعْبَانِ

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٢)

العَظِيم، واهْتِزَازَهَا وحَرَكَتَهَا وخِفَّتَهَا كاهْتِزَازِ الجَانِّ وخِفَّتِهِ.»[١]

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ يفصح عن كلام محذوف تقديره: فألقى موسى العصا طاعة لأمر ربه فانقلبت حية في خفتها وسرعة حركتها. وثعبانا في ضخامة جثتها. وعظم حجمها، فلما أبصرها تهتز وتتحرك بهذه الخفة، تلامسه الخوف، واستبد به الرعب ففر منهزما. ولم يعقب على شيء ولم يرجع وراءه أو يلتفت خلفه من شدة خوفه، وعند ذلك نودى من قبل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾من المخاوف لأنك رسول الله، وإنه لا يخاف لدى المرسلون. [٢]

وبعد أن أمن موسى من الفزع بيَّن الله له المعجزات التي سيستخدمها في مواجهة فرعون، فأولها العصا والأخرى قوله تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أي أدخلها فيه، والجيب: القميص، يقال: جبت القميص أجوبه وأجيبه: إذا قوَّرتُ جيبه، ويقال الجيب هنا القميص.[٣] أَيْ إِذا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾: أَيْ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ.[٤]

ثم أردف الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾«أي لا ترفع يدك إذا شاهدت من نفسك هذا الأمر الخارق المعجز، وأعلن من نفسك العجز والتواضع والعبوديّة، بمقتضى الرهبة المستديمة الثابتة في قلبك في قبال عظمة اللّه المتعال و جلاله. والجناح ما به يميل الشخص الى جهة أو أمر، و من

(١) ينظر: تاج العروس (٢/ ٨٨)
(٢) التفسير الوسيط (٧/ ١٧٦٧)
(٣) مجمع البحرين ومطلع النيرين للطريحي (٢/ ٢٨)
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ١٢)

مصاديقه اليد وجناح الطائر و غيرهما، و ضمّ الجناح الى البدن هو استرساله و ضمّه الى الجنب، و هو علامة التوقّف و التذلّل و كسر القدرة و التظاهر بها.»[١]

إنه التكليف الإلهي لموسى عليه السلام، وهو كذلك الوعد الذي وعده لأم موسى، إنه لا يخلف الميعاد، ولنرجع إلى الوراء قبل تتابع هذه الأحداث جميعها، ونتذكر قول الحق ﷻ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إنه الوعد الحق لا يخلف الله وعده.

لينتقل نبي الله موسى بعد ذلك إلى مرحلة جديدة في حياته كلها، وقبيل الشروع في بدء هذه المرحلة، يقف مع ربه وقفة طالبًا منه العون والمدد، المتمثل في أخيه هارون عليه السلام، وهذا ما سنوضحه تاليًا إن شاء الله تعالى.

المطلب السادس: السياق النصي في طلب العون والمؤازرة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٣: ٣٥]

بعد أن ذهب عن موسى عليه السلام روعه، واستجمع رباطة جأشه، ونظر إلى ما هو مقبل عليه، طلب من الله ﷻ عونًا ومؤازرة، ولا تجد أفضل من الأخ عونًا على صعاب الحياة.

«وَفِي الْكَلَام الْمَنْقُول من الْعَرَب أَن رجلا قيل لَهُ: مَاتَ أَبوك، قَالَ: ملكت نَفسِي، قيل لَهُ: مَاتَ ولدك، قَالَ: تفرغ قلبِي، قيل: مَاتَت زَوجتك، قَالَ: تجدّد فِرَاشِي، قيل: مَاتَ أَخُوك، قَالَ: وانفصام ظهراه، وَقَالَ الشَّاعِر:

أَخَاك أَخَاك إِن من لَا أَخا لَهُ ... كساع إِلَى الهيجا بِغَيْر سلَاح

وَإِن ابْن عَم الْمَرْء فَاعْلَم جنَاحه ... وَهل ينْهض الْبَازِي بِغَيْر جنَاح

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم (ص: ١٢٢٢)

وَقدَّم الله الْأَخ على سَائِر الْأَقَارِب فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس:٣٤] لِأَن الْإِنْسَان إِلَى أَخِيه أميل، وَبِه آنس، وَإِلَيْهِ أسكن.»[١]

عناصر السياق:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	موسى عليه السلام.
٢	المخاطب	الحق سبحانه وتعالى
٣	موضوع النص	حوار بين موسى عليه السلام ورب العزة ﷻ
٤	المقام	(البقعة المباركة في جبل الطور بسيناء ليلًا)
٥	القناة	اتصال مباشر ما بين الله ﷻ وموسى عليه السلام
٦	نوع النص	دعاء ورجاء من موسى عليه السلام لربه
٧	الغرض	طلب العون من الله ﷻ بمساعدة هارون عليه السلام

تمثل الآيات هنا موقفًا حجاجيًا بين موسى عليه السلام ورب العزة ﷻ ولا يخفى ما للسياق من تأثير في وضوح النص وصياغة مفرداته، ومعرفة أبعاده اللغوية والمقامية.

فالمتكلم هنا: هو موسى عليه السلام ويَعرِف مكانته من ربه، فهو الكليم الذي خصَّه الله بالرعاية والمحبة، هذه المكانة أعطته المبرر لطلب العون من الله ﷻ، « وقد يكون المتكلم يسعى إلى إيجاد هذه العلاقة بخطابه، فقد يكون إقامة علاقة بين طرفي الخطاب هو الهدف الرئيس من الخطاب، وهذا ما يبرر إعطاءه كثيرًا من الاهتمام.»(٢)

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٤٠)

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب (ص: ٨٨) عبد الهادي بن ظافر الشهري.

وقد قدَّم موسى السبب لطلبه العون والمساندة، جاء في الكتاب العزيز على لسانه عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾

«أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ قَتْلُ ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ بِذَلِكَ الْوَكْزِ، وَأَيْضًا أَنَّ اللَّه تَعَالَى سَمَّاهُ قَتْلًا حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠]»[(١)]

فالسبب في طلب العون: خوفه من قتل القوم له قبل تبليغ رسالة الله ﷻ، وأما سبب اختيار هارون أخيه فقوله ﷻ: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

ففصاحة هارون عليه السلام، هي المؤهلة له لهذه المهمة الشاقة، والفصيح: البليغ في كلامه؛ يقال: «رجلٌ فصيحٌ وكلامٌ فصيحٌ، أي بليغٌ. ولسانٌ فصيحٌ، أي طلقٌ.»[(٢)]

وذكر بعض المفسرين أن موسى عليه السلام «تعلّل بكلّ وجه رجاء أن يعافى من مشقة التبليغ ومقاساة البلاء لأنه علم أنّ النبوة فيها مشقة، فلم يجد الرّخصة والإعفاء ممّا كلّف.»[(٣)]

ويرفض الباحث هذا الرأي جملة وتفصيلًا؛ فليس موسى عليه السلام بالذي يتعلل، وقد مرَّ من سمات شخصيته ما يدل على شجاعته ومروءته، ومعنى كلمة ردء في اللغة لا يدل بأي وجه على لب الإعفاء، فاللفظ يدل على العون والسند؛ قال الخليل: «الرِّدْءُ مهموز، وتقول: رَدَأْتُ فلاناً بكذا، أو كذا أي جعَلْتُه قوَّةَ له وعماداً كالحائِط تَرْدَؤُه بردْءٍ من بناء تُلزِقُه به، وأرْدَأْتُه أي أَعَنْتُه

(١) تفسير الرازي (١٠/ ١٧٦)

(٢) الصحاح (١/ ٣٩١)

(٣) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٦٨)

وصِرْتُ له ردءًا أي معينا.»[1]

وَقِيلَ: «إِنَّمَا سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِأَخِيهِ، لِأَنَّ الِاثْنَيْنِ إِذَا اجْتَمَعَا عَلَى الْخَيْرِ، كَانَتِ النَّفْسُ إِلَى تَصْدِيقِهِمَا أَسْكَنَ مِنْهَا إِلَى تَصْدِيقِ خَبَرِ الْوَاحِدِ...لِأَنَّ الِاثْنَيْنِ أَحْرَى أَنْ يُصَدَّقَا مِنْ وَاحِدٍ.»[2]

وقد جمع الإمام الرازي –رحمه الله– ما دار حول قوله ﷻ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ من أبحاث، أتيت بها لما فيها من منفعة جمة؛ حيث أورد رحمه الله ما يأتي:

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: الرِّدْءُ اسْمُ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ، فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدِّفْءَ اسْمٌ لِمَا يُدْفَأُ بِهِ، يُقَالُ رَدَأْتُ الْحَائِطَ أَرْدَؤُهُ إِذَا دَعَمْتَهُ بِخَشَبٍ أَوْ غَيْرِهِ لِئَلَّا يَسْقُطَ.

الْبَحْثُ الثَّانِي: قرأ نافع (ردا) بِغَيْرِ هَمْزٍ وَالْبَاقُونَ بِالْهَمْزِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ (يُصَدِّقُنِي) بِرَفْعِ الْقَافِ، وَيُرْوَى ذَلِكَ أَيْضًا عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَالْبَاقُونَ بِجَزْمِ الْقَافِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، فَمَنْ رَفَعَ فَالتَّقْدِيرُ رِدْءًا مُصَدِّقًا لِي، وَمَنْ جَزَمَ كَانَ عَلَى مَعْنَى الْجَزَاءِ، يَعْنِي إِنْ أَرْسَلْتَهُ صَدَّقَنِي وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ [مَرْيَمَ: ٥، ٦] بِجَزْمِ الثَّاءِ مِنْ يَرِثُنِي. وَرَوَى السُّدِّيُّ عَنْ بعض شيوخه (ردءا كيما يصدقني).

البحث الثالث: الجمهور على أن التصديق لهارون، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْمَعْنَى كَيْ يُصَدِّقَنِي فِرْعَوْنُ وَالْمَعْنَى أَرْسِلْ مَعِيَ أَخِي حَتَّى يُعَاضِدَنِي عَلَى إِظْهَارِ الحجة وَالْبَيَانِ، فَعِنْدَ اجْتِمَاعِ الْبُرْهَانَيْنِ رُبَّمَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ تَصْدِيقِ فِرْعَوْنَ.

الْبَحْثُ الرَّابِعُ: لَيْسَ الْغَرَضُ بِتَصْدِيقِ هَارُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُ صَدَقْتَ، أَوْ يَقُولَ

(١) العين (٨/ ٦٧)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٢٤٩)

لِلنَّاسِ صَدَقَ مُوسَى، وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يُلَخِّصَ بِلِسَانِهِ الْفَصِيحِ وُجُوهَ الدَّلَائِلِ، وَيُجِيبَ عَنِ الشُّبَهَاتِ وَيُجَادِلَ بِهِ الْكُفَّارَ فَهَذَا هُوَ التَّصْدِيقُ الْمُفِيدُ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وَفَائِدَةُ الْفَصَاحَةِ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ لَا فِي مُجَرَّدِ قَوْلِهِ: صَدَقْتَ.

الْبَحْثُ الْخَامِسُ: قَالَ الْجُبَّائِيُّ: إِنَّمَا سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُرْسِلَ هَارُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ لَا يَدْرِي هَلْ يَصْلُحُ هَارُونُ لِلْبَعْثَةِ أَمْ لا؟ فلم يكن ليسأل مالا يَأْمَنُ أَنْ يُجَابَ أَوْ لَا يَكُونُ حِكْمَةً، وَيُحْتَمَلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ سَأَلَهُ لَا مُطْلَقًا بَلْ مَشْرُوطًا عَلَى مَعْنَى، إِنِ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُهُ الدَّاعِي فِي دُعَائِهِ.

الْبَحْثُ السَّادِسُ: قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّ نَبِيَّيْنِ وَآيَتَيْنِ أقوى من نبي واحد وَآيَةٍ وَاحِدَةٍ.(١)

لقد ألقى موسى هذا الطلب راجيًا من الله ﷻ أن يُجيب طلَبه ولم ينتظر طويلًا، فقد نزلت إجابة الله ﷻعلى قلبه بردًا وسلامًا، فالحق ﷻ لم يجبه بالقبول فحسب، بل أعطاه بشرى مقرونة بقوة الجواب؛ فقال ﷻ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾

أرجع صاحب المقاييس: «الْعَيْنَ وَالضَّادَ وَالدَّالَ إلى أَصْلٍ –واحد– صَحِيحٍ يَدُلُّ عَلَى عُضْوٍ مِنَ الْأَعْضَاءِ، يُسْتَعَارُ فِي مَوْضِعِ الْقُوَّةِ وَالْمُعِينِ.»(٢)

«والعضد فيه ثلاث لغات: عَضُدٌ، وعُضُد، وعُضْد. وعضُدان وأعضاد، وهو من المرفق إلى الكتف. وفلان يعْضُدُ فلاناً: يعينه. وعَضَدني عليه، أي: أعانني.»(٣)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٤/ ٥٩٦)

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٣٤٨)

(٣) العين (١/ ٢٦٨)

وإنما استُعير العضد ليدل على القوة والمُعين «على جِهَة الْمثل، لأنّ اليدَ فَوْقهَا عضدها؛ وكلّ معينٍ فَهُوَ عَضُد. وعاضَدَني فلانٌ على فلانٍ، أَي عاونَني.»(١)

ففي الآية «قال الله لموسى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنعينك ونقويك، وشدّ العضد كناية عن التقوية.»(٢)

وأما قوله ﷻ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فلفظ السُّلْطانُ يأتي في معنى الحُجّة والبرهان، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٩] أي حُجّتِيَه. والسُّلْطان: قُدرةُ المَلْكِ...وقُدرة من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطاناً على أخذِ حقي من فلان.(٣) والمعنيان يحتملهما النص.

فبشارة الله ﷻ لموسى وهارون هي أنهما مدعومان بالحجة والبرهان، «والسُّلطان إنما سُمِّيَ سُلْطاناً لأَنه حجةُ اللهِ فِي أَرضه.»(٤)

وتأتي هذه الآيات «تهدئة لروع موسى، وتأمينا له من كل خوف، تعهد الحق سبحانه وتعالى برعايته ورعاية أخيه، وحمايتهما من كل أذى، وبشرهما بأن الغلبة في النهاية ستكون لهما ولمن اتبعهما على الحق، ومعنى ذلك ان الهزيمة ستكون عاقبة فرعون وملئه، وهذا التعهد الإلهي النافذ هو ما نطق به قول الله تعالى في نفس السياق: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.»(٥)

---

(١) تهذيب اللغة (١/ ٢٨٧)

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٣٩٩)

(٣) العين (٧/ ٢١٣)

(٤) لسان العرب (٧/ ٣٢١)

(٥) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٥)

وتنتهي هذه الحلقة بدعم كبير لموسى وهارون عليهما السلام، وفيما أرى أن موسى طلب هارون دعمًا له، فأجابه الله لما سأل وزاد عليه بأنه سيعين كليهما، ويدحض حُجج أعدائهما، ولهذا قال ﷻ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وأما هارون فكان نعم العضد والسند والمعين، «وبهذه العدة من الله اشتد عضد موسى – عليه السلام – وقوى عزمه، وتسامت همته إلى مواجهة طغيان فرعون وملائه، وتحطيم إلاهيته، كما تمت نعمة الله على هارون بإرساله، بفضل طلب موسى لذلك من ربه، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون – عليهما السلام – فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملئه.»(١)

المطلب السابع: السياق النصي في حِجاج موسى وفرعون.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٦: ٣٨]

هذه مرحلة أخرى في حياة نبي الله موسى عليه السلام، تبيّن دعوة فرعونَ إلى الله ﷻ، ورد فعل الأخير على هذه الدعوة، كما تبيّن بعض الدلائل التي واجه بها موسى عليه السلام عدوَه، وموقف كل واحد منهما من الآخر.

وتتسم هذه الآيات بأسلوب حجاجي تنازعي، وهذا الأسلوب له سماته التي

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٧٠)

تميزه عن غيره من الحوارات، منها: أن «اهتمام المتكلم يتعدى المخاطب، إلى الجمهور الذي يُشكّل طرفًا آخر، على قدرٍ من الأهمية بمكان، وهو الجمهور الحاضر، ولهذا فإن المتكلم لا يأخذ في الحسبان خصمه فقط، بل يولي الجمهور الشاهد على النزاع اهتمامًا خاصًا.»(١)

ومنها: « تناظر الخصمين المتنازعين، ويبدو واضحًا من قصة سيدنا موسى عليه السلام كما يرويها النص القرآني، كيف كانت الأدوار تتبدل بينهما، حيث يأخذ كل منها دور المتلقي والمرسل بالتناوب، ويظل العنصر التناظري مستمرًا.»(٢) إلَّا أن يُبهت أحدُ الخصمين الآخرَ كما فعل سيدنا موسى عليه السلام مع عدو الله فرعون.

وقد سجّل القرآنُ الكريمُ في مواطنَ كثيرة حوار موسى عليه السلام مع فرعون، ومع سحرته قبل إسلامهم، ووصف زمان اللقاء ومكانه، وكل هذا له دلالته السياقية على النص، ولهذا استخدم الحق ﷻ صيغة الجمع في قوله: (جَآءَهُم – قَالُوٓاْ –سَمِعۡنَا– ءَابَآءِنَا) وفي هذه الضمائر إحالة خارجية للملأ من قوم فرعون؛ ليدل على أن فرعون لم يكن وحده، بل كان معه قومه حين خاطبه موسى عليه السلام.

وكما عهدنا أن عناصر السياق من مقومات فهم النص، وكشف أبعاده المقالية، والمقامية.

(١) ينظر: حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني دراسة تداولية (ص: ٦٦) رسالة ماجستير للباحث/ كهينة زموش، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١١م.

(٢) السابق (ص: ٦٧)

وعناصر النص هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص		
١	المتكلم	موسى عليه السلام		فرعون لعنه الله ﷻ
٢	المخاطب	فرعون	موسى عليه السلام	الملأ الحاضر
٣	موضوع النص	حوار حجاجي بين موسى عليه السلام وفرعون		
٤	المقام	(في قصر فرعون، وربما انتقل إلى أماكن أخرى)		
٥	القناة	حوار بين موسى وفرعون أمام أشهاد بعض الناس		
٦	نوع النص	نص حجاجي تنازعي		
٧	الغرض	بيان حفظ الله ﷻ لأهل الإيمان ونصرهم.		

تبدأ هذه الآيات بـ(فاء) الترتيب والسرعة، أي أن موسى عليه السلام، أخذ دعوة ربه، وانطلق بعدها مباشرة لملاقاة فرعون ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾تدل على سرعة استجابة موسى وأخيه هارون عليهما السلام إلى أمر الحق سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ الآية تعني: العَلامةُ.(١)

«والبَيِّنَة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة.»(٢)

فآيات بينات، أي: علامات واضحة ظاهرة للجميع، وهما الآيتان اللتان أيّد بهما اللهُ ﷻ موسى عليه السلام (العصا واليد)

ودور المتكلم في هذا النص جاء تبادليًا بين موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله، كأي حوار حجاجي كما بيَّنا، والذي بدأ الحوار هو موسى عليه السلام،

(١) العين (٨/ ٤٤١)، الصحاح (٦/ ٢٢٧٥)، المصباح المنير (١/ ٣٢)

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٥٧)

لكنه فوجئ برد فعل من الملأ الذين استمرأوا العبودية على يد فرعون وجنده، فما كان منهم إلَّا أن وصفوا ما جاء به موسى عليه السلام بأنه مفترى، يقصدون به أنه مُختلق من عنده من قولهم: «فَرى فلان كذباً، إذا خلقه. وافْتَراهُ: اختلقه. والاسم الفِرِيَةُ. وفلان يَفري الفرِيَّ، إذا كان يأتي بالعجب في عمله.»(١)

ومن جمال التعبير القرآني أن الآيات البينات التي جاء موسى عليه السلام فرعونَ بها نسبها الله ﷻ لذاته ﷻ ولم ينسبها لموسى عليه السلام؛ فقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ فالإحالة في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ مرجعها إلى عنصر خارجي عن محيط النص وهو الحق ﷻ، أي: « فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَجِنَا بَيِّنَاتٍ أَنَّهَا حُجَجٌ شَاهِدَةٌ بِحَقِيقَةِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، قَالُوا لِمُوسَى: مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَنَا بِهِ إِلَّا سِحْرًا افْتَرَيْتَهُ مِنْ قِبَلِكَ وَتَخَرَّصْتَهُ كَذِبًا وَبَاطِلًا (وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا) [القصص: ٣٦] الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ مَنْ تَدْعُونَا إِلَى عِبَادَتِهِ فِي أَسْلَافِنَا وَآبَائِنَا الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَنَا.»(٢)

فأجابهم موسى عليه السلام، بأن الله ﷻ هو أعلم بذلك منهم، «وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد.»(٣)

والعاقبة: الآخرة؛ كما ذكرها أهل اللغة، ومنها: «عاقِبَةُ كلَّ شَيءٍ: آخرُه. وقولهم: ليست لفلانٍ عاقبةٌ، أي ولد.»(٤)

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بإنذار شديد اللهجة، على لسان موسى عليه السلام، ليس لفرعون فقط، ولكنه لكل من سمعه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

(١) الصحاح (٦/ ٢٤٥٤)
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٢٥٣)
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٦)
(٤) العين (١/ ١٧٩)، الصحاح (١/ ١٨٤)

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾والفَلاحُ: الْفَوْزُ وَالنَّجَاةُ وَالْبَقَاءُ فِي النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ...يقول الرجل لامرأته: اسْتَفْلِحي بأمرِك، أي فوزي بأمرك.(١)

وذهب بعض المفسرين أن موسى عليه السلام كان يعني نفسه بقوله: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ وذلك لأن السياق يقتضي عدم العطف بالواو لأن الموقع موقع سؤال وجواب، كما أن الآية جرت على أسلوب التشكيك والتعمية استجهالًا لهم على حد قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]

والمعنى: قال موسى – عليه السلام – ردا على قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ ربي أعلم منكم بحال من أهله للدعوة إلى الهدى والفلاح الأعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى، ووعده العاقبة المحمودة في الدنيا، وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله وكرمه.(٢)

والغرض من سوق هذا الموقف لرسول الله محمد ﷺ هو: الإفادة في جداله مع خصومه، حتى يبين لهم الحق والصواب، « كما قال موسى لفرعون وملائه فيما سبق بإرشاد من ربه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [القصص:٣٧] ها هو ذا كتاب الله يلقن لنبيه الصادق الأمين –ﷺ– نفس الأسلوب الحكيم، ويحضّه على أن يتلطف مع من يجادلونه، ويرخي لهم العنان، عسى أن يستدرج إلى الحق من يجادل في الحق بغير حجة ولا برهان، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [القصص:٨٥] على غرار قوله تعال في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ

(١) الصحاح (١/ ٣٩٢)، لسان العرب (٢/ ٥٤٧)، تاج العروس (٧/ ٢٥)[فلح]

(٢) ينظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٧١) باختصار بسيط.

مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]»[1]

ثم تتبدل الأدوار في هذا النص، ليكون المتكلم متلقيًا، والمتلقي متكلمًا، فيبدأ فرعون بإسقاط حُججه على هذا الحوار، فهل كان يملك حججًا ظاهرة كموسى عليه السلام؟ أم أنه سلك مسلكًا متعرجًا ليُعمي على الملأ الحاضر حُجج موسى عليه السلام.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

المتكلم هنا هو فرعون لعنه الله، بيد أنه لم يوجه الخطاب لموسى عليه السلام، ولكنه توجه بالخطاب، لجموع الملأ الحاضرين، ويرجع هذا في رأي لأحد أمرين:

أولهما: أن يكون فرعون على علم بأنه لا يستطيع مجابهة موسى عليه السلام، فآثر أن يتجنبه في حواره.

ثانيهما: أن يكون فرعون أراد التأثير بالجمهور الأكثر عددًا، خوفًا من تأثير موسى عليه السلام عليهم.

خاطبهم بنفس أسلوب الاستعلاء والاستخفاف المعهود عنه، بتنصيب نفسه إلهًا عليهم، محاولًا إقناعهم بأنه المتفرد بالعبودية، وذلك قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾

واستعان فرعون بمستشار دولته، والمدافع عنه وعن غيه هامان، طالبًا منه طلبًا لا يريد به إلَّا التعمية على الجهلاء السفهاء من قومه؛ «فأي بناء ولو بلغ أعلى عليين، لا يصل متسلقه إلى عرش رب العالمين، لكونه لا يحده زمان ولا مكان، ولا يدركه بصر أي إنسان، فسيتخذ فرعون من ذلك ذريعة لإنكار

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٦)

الألوهية، ويجعل موسى امام الملأ موضع تهكم وسخرية، مشككا فيه وفي عقيدته إذ يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.»[١]

وطلب من هامان أن يبني له صرحًا، « والصَّرْحُ: بَيْتٌ وَاحِدٌ يُبْنى مُنْفَرِدًا ضَخْماً طَوِيلًا فِي السَّمَاءِ؛ وَقِيلَ: هُوَ القَصْرُ؛ وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ بِنَاءٍ عَالٍ مرتفع.»[٢]

وتلك أوصاف الصرح، كما وصفها القرآن الكريم فهو بناء عالٍ من الطين واستخدم في بنائه الوقود لجعل الطين يابسًا متينًا، وربما كانوا متقدمين في مجال البناء والتشييد.

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ﴾ « طَلَعَ على الأمرِ طُلوعاً: عَلِمَه، كاطَّلَعَه »[٣] والأولَى أن يكون الطلوع من الصُّعُودِ؛ قال صاحب اللسان: « طَلِعَ الجبلَ، بِالْكَسْرِ، وطلَعَه يَطْلَعُه طُلُوعاً: رَقِيَه وعَلاه.»[٤]

وفرعون في فعله هذا يدَّعي العدل والإنصاف، « وكأنه يوهم قومه أنه لو كان كما يقول موسى لكان جسما في السماء يمكن الصعود إليه، والاطلاع عليه، وإني لأظنه من الكاذبين فيما يذكر من أمر الإله وما يدعى من شأن النبوة، ولكن أحب أن أحقق الأمر من طرقه المختلفة حتى لا يكون لديّ ولا لديكم شك في أنه ليس لكم إله غيرى، وهذا منه مبالغة في التمويه، وإغراق في التلبيس واللعب بعقولهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزُّخرُف:٥٤].»[٥]

وينتهي هذا المشهد في سورة القصص سريعًا جدًا لا يحمل في طياته تفاصيل كثيرة، وإن كانت هذه التفصيل قد ذُكرت في مواطن أخرى، إلَّا أن

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٦)
(٢) (لسان العرب (٢/ ٥١١)، تاج العروس (٦/ ٥٣٣)
(٣) تاج العروس (٢١/ ٤٤٧)
(٤) لسان العرب (٨/ ٢٣٦)
(٥) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٧٣)

الاختصار مناسب هنا لسياق القصة.

فالغرض: هنا إثبات حفظ الله ﷻ ورعايته لرسله وعباده المؤمنين، فناسب الاختصار في هذا المشهد، وينتقل سياق القصة سريعًا لرواية المشهد الأخير منها، وهوما نبحثه في المطلب التالي.

المطلب الثامن: السياق النصي في هلاك فرعون وجنوده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٩: ٤٢]

هذه الحلقة من القصة تروي نهاية فرعون وهلاكه، موضحةً السبب الرئيسي في هلاك هذه الفئة الباغية، كما تبين المآل المنتظر لهم يوم القيامة.

واجتمعت العوامل النصية في هذا النص مبينة الإحكام القرآني في إعطاء كل عنصر من عناصر السياق اللغوي وغير اللغوي حقه النصي.

وعناصر السياق هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المخاطب	سيدنا محمد ﷺ
٣	موضوع النص	نهاية وهلاك فرعون وجنوده
٤	المقام	(قبيل الهجرة النبوية الشريفة)
٥	نوع النص	قصصي قرآني
٦	الغرض	توضيح نهاية الظالمين، وعاقبتهم يوم القيامة

يصل القصص القرآني في هذه الآيات إلى سرد نهاية فرعون، بعدما

استكبر هو وجنوده وتطالوا على الله ﷻ، ولم يستجيبوا إلى رسول الله ﷺ ولا إلى ما جاءهم من الهدى؛ فكانت نهايتهم على الله يسيرة، وإبادتهم سريعة.

والمتكلم ﷻ يُظهر قدرته المطلقة على إنهاء الظالم مهما علا وتجبر واستعلى في ظلمه وغيه، وأعلن ﷻ الخطأ الذي اقترفه فرعون فكان وبالًا عليه، وهلاكًا له ولجنوده.

والخطأ الذي ارتكبه فرعون، هو الاستكبار في الأرض بغير الحق، والكبر من الآثام المنهي عنها، «فالكِبرُ: الإثم الكبير من الكبيرة، كالخِطء من الخطيئة.»[١] ، واستكبر فرعون أي طلب الكبر بمعنى، أنه « يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس له.»[٢]

وقيَّد القرآن الكريم استكبار فرعون: بغير الحق؛ لأن «الاستكبار بالحق: إنما هو لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته في النار». وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق.[٣]

فاستكباره «حَال لَازِمَةٌ لِعَامِلِهَا إِذْ لَا يَكُونُ الِاسْتِكْبَارُ إِلَّا بِغَيْرِ الْحَقِّ.»[٤]

والمعنى: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ «أي تجبَّر فرعون وقومه، في أرض مصر عن تصديق موسى

(١) العين (٥/ ٣٦١) [كبر]

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٩٧)

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف للزمخشري (٣/ ٤١٥)، والحديث المذكور في مسند أحمد ت شاكر (٧/ ١٨٨) برقم(٧٣٧٦)، وسنن أبي داود ت الأرنؤوط (٦/ ١٨٩) باب ما جاءَ في الكبر

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٤)

واتِّباعه على توحيد الله وعبادته بغير الحق أي تعدياً وعنواً على ربهم وظنوا أنهم لا يبعثون بعد مماتهم، وأنه لا ثواب ولا عقاب.»[١]

وبعد إثبات طغيان فرعون، وعدم طاعته لموسى عليه السلام، كان الجزاء من الله ﷻ عادلًا؛ فأهلكه هو ومن اتبعه في ظلمه وغيّه، وبيَّن الله ﷻ أن هلاك فرعون جاء عقب استكباره وإنكاره؛ فأتى بحرف العطف (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ -فَنَبَذْنَٰهُمْ -فَٱنظُرْ﴾ ليدل على سرعة هلاك فرعون عقب استكباره هو وجنوده في الأرض بغير الحق.

ومعنى الأخذ هنا: حوز فرعون ومن معه من الكافرين قهرًا، دلَّ على ذلك ما ذكره صاحب المفردات من أن « الأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .»[٢]

وسياق الآية يرجح الأصل الثاني وهو الأخذ قهرًا وعنوة، ولذلك قال بعدها: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي طرحناهم في اليمّ، والنَّبْذُ: طَرْحُكَ الشيء من يدكَ أمامَك أو خلفك.[٣]، وهو أصل صحيح صرح به ابن فارس في قوله: « النُّونُ وَالْبَاءُ وَالذَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحٍ وَإِلْقَاءٍ. وَنَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبِذُهُ نَبْذًا: أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدِي.»[٤] ، وزاد الراغب أنه « إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به.»[٥] وكأنهم أقل من يجعل الله ﷻ لهم شأنًا، أو يقيم لهم وزنًا.

(١) الهداية الى بلوغ النهاية (٨/ ٥٥٣٦)
(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٧)
(٣) العين (٨/ ١٩١)
(٤) مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٠)
(٥) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٨٨)

والمعنى اللغوي للأخذ والنبذ هنا أيده قول بعض المفسرين في تفسير هذه الآية بقولهم: « أي: فباغتنا فرعون وجنوده فأخذناهم فنبذناهم وطرحناهم في البحر، ورميناهم فيه رمي البقايا التالفة والمخلفات التافهة، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار شديد للمأخوذين وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم في اليم كما يأخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه.»(١)

وهكذا تنتهي هذه الحلقة مجملةً سريعةً، خالية من دقة التفاصيل، تنتهي « في اختصار حاسم. أخذ شديد ونبذ في اليم. نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر. اليم الذي ألقي في مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمنا وملجأ. وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة. فالأمن إنما يكون في جناب اللّه ، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب.»(٢)

ومع انتهاء هذه الحلقة يأتي الغرض الأساسي الذي سيق من أجله سرد أحداث القصة إجمالًا وتفصيلًا؛ فقال ﷻ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فتأمل يا رسول الله وانظر كيف انتهت عاقبة هؤلاء الطغاة وكيف استحال تجبرهم وكفرهم، وبَيِّنْ هذا لقومك وللناس ليعتبروا ويتدبروا. (٣)

ويستمر المتكلم ﷻ في بيان الغرض للمتلقي، بأن النهاية لفرعون ليس في إهلاكه في الدنيا فحسب، بل في جعله يوم القيامة إمامًا لأهل النار، « وكلّ من اقتُدِيَ به، وقُدُّم في الأمور فهو إمامٌ»(٤)، وهذا قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٧٤)
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٩٥)
(٣) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٧/ ١٧٧٤)
(٤) العين (٨/ ٤٢٨)

﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ فلا نصر لهم ولا تمكين في الدنيا أو الآخرة، أما في الدنيا فقد تبعتهم اللعنة كلما جاء ذكرهم، وأما في الآخرة فهم من المقبوحين، « أَي المبَعدينَ عَن كلِّ خَيْر.»(١)

والقبح: « كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْحُسْنِ، وَهُوَ الْقُبْحُ. يُقَالُ قَبَّحَهُ اللَّهُ، وَهَذَا مَقْبُوحٌ وَقَبِيحٌ. وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَبَّحَهُ: نَحَّاهُ وَأَبْعَدَهُ.»(٢)

« إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ويختصر حلقة السحرة التي تذكر في سور أخرى بتفصيل أو إجمال.

يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك. ثم لا يقف عند الأخذ في الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة ..

وهذا الإسراع في هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة في السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل اللّه بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل في المواجهة أو تطويل.»(٣)

ومع انتهاء قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية يذكر القرآن الكريم ما يُثبت نبوة محمد ﷺ وكذا يقابل بإشارات واضحة بين القصتين قصة موسى عليه السلام التي مضت وانقضى زمانها، وبين قصة محمد ﷺ التي يعيشها هو وصحابته، ويجدون في هذا القصص السلوان ويأخذون منه العبرة والموعظة، ويوضح ذلك المطلب التالي في هذه السورة المباركة.

---

(١) تاج العروس (٧/ ٣٥)

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٤٧)[قبح]

(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٩٤)

المطلب التاسع: نداء للعبرة والتصديق.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٤٤: ٥٠]

هذا المطلب الأخير في قصة موسى عليه السلام، جاء الحديث عنها بعد انتهاء أحداثها، ولذا فسياق النص فيها لا يدور حول موسى عليه السلام، ولا حول جزئيات حياته، ولكنه موجهٌ إلى المخاطب الرئيسي لهذا الحدث سيدنا محمد ﷺ، توضح الغرض العام الذي قامت عليه البنية الكلية للنص.

كما جاءت الآيات بدليل قاطع وحجة ساطعة على ثبوت نبوته ﷺ، فقصة موسى عليه السلام، وغيرها من القصص القرآني من الأمور الغيبية التي لم يشهدها النبي ﷺ ومع ذلك قصَّها بأدق تفاصيلها، فسبحان من أوحى له بها، وأنزلها مسبوكة النص، محبوكة المعنى في آيات تُتلى إلى قيام الساعة.

وعناصر النص هي:

م	العناصر	دورها في سياق النص
١	المتكلم	الحق سبحانه وتعالى
٢	المخاطب	سيدنا محمد ﷺ
٣	موضوع النص	استفادات من قصة موسى عليه السلام
٤	المقام	(قبيل الهجرة النبوية الشريفة)
٥	نوع النص	قراني يحوي مواعظ ودلالات
٦	الغرض	بيان ردود أفعال قريش لدعوة النبي ﷺ وكيفية التعامل معها

تنتقل الآيات لبيان الهدف الأسمى لورودها، وهو تثبيت قلب النبي ﷺ ومنحه الرضى والتسليم لأمر الله ﷻ مهما يكن من أولئك الكفار؛ فهم صورة مكررة ممن كان قبلهم.

ويبدأ المتكلم ﷻ بإبراز المعجزة التي وهبها لرسوله ﷺ في هذه الآيات، وتكمُن هذه المعجزة في أن الرسول ﷺ لم يحضر أيَّ مشهد من مشاهد هذه القصة، ومع هذا فقد أجمل فيها وفصّل، وأوجز فيها وبَسَط، ولا يتأتى هذا إلَّا لمتقن لكل تفاصيلها، فلا شك أنها من عند الله ﷻ، وأنها وحي يوحى بالصدق لرسوله الأمين ﷺ.

وهذه البراهين جاءت في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

فالرسول الكريم ﷺ لم يكن موجودًا في هذه الأماكن، التي تلقى فيها موسى عليه السلام التعليمات والمهام من رب العزة ﷻ، والجانب الغربي في قوله ﷻ: « ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي الجبل الغربي أي الذي في جهة الغرب. والغرب من الشجر ما أصابته الشمس بحَرِها عند (اتجاهها) للأفول.»[١]

وقضينا، أي: « أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك.»[٢] ، وقال ابن فارس: «الْقَافُ وَالضَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ أَمْرٍ وَإِتْقَانِهِ وَإِنْفَاذِهِ لِجِهَتِهِ.»[٣]

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ « الثَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْإِقَامَةِ.»[٤] ؛ « فالثَّواءُ: طُولُ المُقام، وقد ثَوَى يَثْوِي ثواءً. ويُقالُ للمقتول: قد ثَوَى. ويقال للغريب المقيم ببلدة: هو ثاويها.»[٥]

فهذه الإشارات التي أرسلها الله ﷻ في الآيات السابقة من قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ – وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ – تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي « أنك لم تكن شاهدًا هذه المُشاهدة التي شهدها موسى حيث قضينا إلى موسى الأمر بجانب الغربي، ولم تكن شاهدًا هنالك، وما كنت في أهل مدين ثاويًا حتى تعلم أمر موسى وحينه، وما كنت بجانب الطور حيث نادى: يا موسى ونحوه؛ أي: لم تكن شاهدًا هذه المشاهدة التي كان موسى شاهدًا فيها، ثم أعلمناك بتلك الأنباء والأخبار

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٧١)[غرب]
(٢) الصحاح (٦/ ٢٤٦٤)[قضى]
(٣) مقاييس اللغة (٥/ ٩٩) [قضى]
(٤) مقاييس اللغة (١/ ٣٩٣)[ثوى]
(٥) العين (٨/ ٢٥٢)

على ما كانت لتتلو تلك الأنباء والأخبار على أهل مكة؛ فتكون آية لنبوتك، وحجة لرسالتك؛ إذ لم تشهدها ولا اختلفت إلى أحد ممن يعرفها فعلمك، ثم أنبأت على ما كانت؛ ليعرفوا أنك إنما عرفت باللَّه تعالى.»[1]

ويختتم الحق هذه الإشارات بقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. «المعنى إنك لم تشاهد قَصَصَ الأنبياء، ولا تُلِيَتْ عَلَيْكَ، ولكن أَوْحَيناها إليك، وقصَصْنَاها عليك رحمةً مِنْ رَبِّكِ لتنذِر قوماً، أي لتعرفهمُ قَصَصَ مَن أُهْلِكَ بِالعَذَابِ ومن فاز بالثواب.»[2]

بعد بيان المعجزة وإثبات الحجة، وصلت القصة إلى الحبكة الرئيسية التي تحتوي على الهدف العام، وتحمل المقارنة بين فئتين من الناس يواجهون دعوة الهدى من رُسُلِ الله ﷻ، وهذه المقارنة قد ينتج عنها ردود أفعال متشابهة، فمن الحكمة الإلهية والرعاية الربانية، أن يُعلَم رسول الله ﷺ مسبقًا بما قد يحدث، فلا يجزع ، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات.

ومن هذا المعنى مخاطبة الحق ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ والمعنى « أَنهم لَوْلَا قَوْلهم هَذَا، واحتجاجهم بترك إرْسَال الرُّسُل، وَإِلَّا لعاجلناهم بالعقوبة، وَمِنْهُم من قَالَ: فِي الْآيَة تَقْدِيم وَتَأْخِير، وَتَقْدِير الْآيَة: وَلَوْلَا أَنهم يَقُولُونَ: لَوْلَا أرْسلت إِلَيْنَا رَسُولا فنتبع آياتك، ونكون من الْمُؤمنِينَ، لأصابتهم مُصِيبَة بِمَا قدمت أَيْديهم، والمصيبة: الْعقُوبَة.»[3]

فمن المتوقع أن يحتَجّ من يقع عليه العذاب بعدم معرفته بأمر الله ﷻ من

(١) تفسير الماتريدي (٨/ ١٧٢)
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١٤٧)
(٣) تفسير السمعاني (٤/ ١٤٤)

قِبل رسول يُرسل إليهم، مع أنهم أنفسهم طلبوا العذاب إن كان الرسول ﷺ على الحق ، فيما ذكر رب العزة ﷻ في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢]

ومن المتوقع كذلك أن يعقد هؤلاء الكافرون مقارنة بين من أُرسل إليهم وبين من علموا من أخبار رُسل الله ﷻ؛ فتأتي هذه الآية لتحسم الأمر لرسول الله محمد ﷺ، وهي قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ولأهل التأويل في مقولة القوم هنا وجهان:

الأول: أن يكون هذا تحريضًا من اليهود لقريش في محاولة لتعجيز محمد ﷺ وإبطال دعوته؛ فعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قَالَ: " يَهُودُ تَأْمُرُ قُرَيْشًا أَنْ تَسْأَلَ مُحَمَّدًا مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، فَقَالَ اللَّهُ لِمُحَمَّدْ: قُلْ لِقُرَيْشٍ، فَلْيَقُولُوا لِلْيَهُودِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾[(١)]

الثاني: أن يكون هذا القول من قريش أنفسهم، دون تحريض من غيرهم، والمعنى حينئذٍ: « فَلَمَّا جَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَأْتِهِمْ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ نَذِيرٌ فَبَعَثْنَاكَ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا...بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، قَالُوا تَمَرُّدًا عَلَى اللَّهِ، وَتَمَادِيًا فِي الْغَيِّ: هَلَّا أُوتِي هَذَا الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْنَا، وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ مِنَ الْكِتَابِ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، الْقَائِلِينَ لَكَ ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ أَوَ لَمْ يَكْفُرِ الَّذِينَ عَلِمُوا هَذِهِ الْحُجَّةَ مِنَ الْيَهُودِ بِمَا أُوتِي مُوسَى مِنْ

(١) تفسير مجاهد (ص: ٥٢٩)

قَبْلِكَ؟.»[1]

فالسياق هنا يبين المقارنة، بين كفر فرعون وملائه لموسى بعد أن رأوا الآيات، وبين كفر قريش لرسالة النبي مع تأييد الله له أيضًا بكثير من الآيات الظاهرة لهم، وكأن الفئتين تتشابهان.

ثم أعطى المتكلم ﷻ للمخاطب حُجة ساطعة عليهم في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وهذه الحجة هي طلب المعرضين أن يأتوا بكتاب خير مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ، اللذين كفروا بهما، وهم في هذه الحالةَ لا يَأْتُونَ بِهِ فتكون حُجَّة عَلَيْهِمْ.[2]

وفي ختام القول يعطي الله ﷻ لنبيه ما يربط به على قلبه، ويُخرجه من الضيق والهم، فيبين له أن هؤلاء القوم ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وهم بذلك قد أضلوا أعظم الضلال، فليس لهم عند الله هداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي هذا بيان أن التمكين للمؤمنين الصالحين وحدهم، فكما مكَّن الله لبني إسرائيل مع موسى عليه السلام، سيمكن لأتباع النبي من الصالحين.

وأما الرسول ﷺ فجاءته البشرى من الله ﷻ قبل خروجه من مكة بالنصر والتمكين والرجوع إلى البلد الذي أُخرج منها، بأمر من الله تعالى، وقد أطلعه على ذلك أثناء الهجرة المباركة، وجاءت بشرى التمكين وفتح البلد الأمين في نهاية سورة القصص التي نعيش معها في هذا البحث؛ وذلك في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٢٦٥)

(٢) ينظر: تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٥٩٨)

فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص:٨٥]

ومن اليُمنِ أن أختم بهذا الأثر الذي رواه مقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠هـ): «من أن النبي– صلى الله عليه وسلم– خَرَجَ مِنَ الْغَارِ لَيْلا، ثُمَّ هَاجَرَ مِنْ وَجْهِهِ ذَلِكَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَسَارَ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ مَخَافَةَ الطَّلَبِ فَلَمَّا أَمِنَ رَجَعَ إِلَى الطَّرِيقِ فَنَزَلَ بِالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَّةَ فَاشْتَاقَ إِلَيْهَا، وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ ومولد أبيه فأتاه جِبْرِيلُ– عَلَيْهِ السَّلامُ– فَقَالَ: أَتَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ؟ فَقَالَ النَّبِيّ– صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ– نَعَمْ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ– عَزَّ وَجَلَّ– يقول–: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يَعْنِي إِلَى مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِالْجُحْفَةِ.» (١)

وروى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: «إِلَى مَكَّةَ» (٢)

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٣٥٩)

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١١٣) برقم (٤٧٧٣) بَابُ (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ)

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تتنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، وصلوات الله وتسليماته على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير البشير النذير، معلم البشرية وهادي الإنسانية، رسول الله ﷺ وبعد...

فهذه جولة سياقية تعايشنا فيها مع كتاب الله ﷻ وإحدى القصص المشهورة التي تتضح بالمواعظ والعبر لكل قارئ ومتدبر فيها، وبعد أن وصل البحث إلى منتهاه، توصل إلى بعض النتائج، ومنها:

١- السياق النصي يجب أن يُدرس بكل جوانبه الداخلية والخارجية، بخلاف ما أدعى بعض مؤسسي نظرية علم اللغة النصي، أن السياق المقامي وحده يكشف عن نصية النص من عدمه.

٢- المعالجة السياقية للنص كاملًا تكشف عن دلالات ومعانٍ لا تأتي بها المعالجات المفردة لبعض الألفاظ.

٣- أظهر السياق العَلاقة بين أحداث قصة موسى عليه السلام، وبين ما يحتاجه أصحاب محمد ﷺ فكانت القصة بمثابة الداعم والمعين لهم رضوان الله عليهم.

٤- اختلاف أحداث القصة ما بين الطول والقصر، جاء وفق ما يقتضيه السياق، فبعض الأحداث وصف القرآن أدق تفاصيلها؛ لحاجة المتلقي إليها، والبعض الآخر اختصره القرآن ليؤكد حقيقةً لاختصاره أيضًا، كاختصاره في حلقة هلاك فرعون، ليؤكد سرعة إهلاك الله ﷻ لهم.

٥- دراسة السياق النصي على النصوص العربية، تبين أن العلاقة بينهما كعلاقة الجسد بالروح، فإن وجود أحدهما دون الآخر؛ ينقص الفهم، ويقل الفائدة، وقد يختلف ذلك على النصوص غير العربية.

٦- يظهر السياق النصي جليًا في النصوص ثنائية الأطراف كالقصص والخطابات والرسائل؛ حيث يتجلى فيها العلاقة بين الأطراف المتشاركة، ما بين قصدية المنشئ، ومقبولية المتلقي، وأثر ذلك على النص اللغوي

٧- عالج السياق النصي قضية التكرار في القصص القرآني والمراد منه، كما بين البحث ردود علمائنا على بعض المستشرقين الذين حاولوا التشكيك بقولهم أن بعض الآيات تتكرر دون اختلاف في اللفظ أو المعنى.

وفي الختام فهذه بعض نتائج البحث ومُسلَّماته، ولست أدّعي الكمال، فالكمال لله وحده، فاللهم إني أستغفرك من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، وأستغفرك من كل قول لا يوافقه العمل، ومن كل علم أو عمل قصدت به وجهك الكريم ثم خالطه غيره، ومن كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعملتها في غير طاعتك، واللهَ أسألُ أن يجعل هذا البحث مفيدًا خالصًا، إنه ولـيّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

	القرآن الكريم
١	إثبات نبوة محمد ﷺ للإمام أبي العباس ضياء الدين القرطبي ، تح/ أحمد آيات بلعيد، ط دار الكتب العلمية.
٢	أساس البلاغة الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، ت: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولى،(١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
٣	استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، د ط، د ت
٤	إصلاح المنطق، ابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ)، ت: محمد مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى(١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م)
٥	إعجاز القرآن للباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) تح/السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م
٦	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد الفاسي (ت: ١٢٢٤هـ) تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ
٧	البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ) تح: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
٨	البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م
٩	تاج العروس، للزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٠	التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: للطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.
١١	التحقيق في كلمات القرآن الكريم، لحسن المصطفوي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط ١ ، ١٤١٦هـ.
١٢	تفسير ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ
١٣	تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (ت : ٥١٠هـ) حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م
١٤	تفسير الرازي = مفاتيح الغيب = التفسير الكبير/ لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت/ ط٣ / ١٤٢٠ هـ
١٥	تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لجار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ
١٦	تفسير السمرقندي = بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد (ت: ٣٧٣هـ)
١٧	تفسير السمعاني (ت: ٤٨٩هـ) تح/ ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م
١٨	تفسير الشعراوي = الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م

١٩	تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) تح. د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر،د/عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
٢٠	التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ) الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة
٢١	تفسير القشيري = لطائف الإشارات، لعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ) تح/ إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة
٢٢	تفسير الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) تح/ د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
٢٣	التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) - (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م)
٢٤	التفسير الوسيط للواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) تح/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
٢٥	تفسير في ظلال القرآن، د/ سيد قطب، دار الشروق، ط ٣٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

٢٦	تفسير مجاهد لأبى الحجاج مجاهد المخزومي (ت: ١٠٤هـ) تح: د/ محمد عبد السلام، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر ط ١، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م
٢٧	تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠هـ) تح: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ
٢٨	تفسير يحيى بن سلام القيرواني (ت: ٢٠٠هـ) تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م
٢٩	تهذيب اللغة، الأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، ت: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى (٢٠٠١م)
٣٠	التيسير في أحاديث التفسير، لمحمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ) دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م
٣١	حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني دراسة تداولية، رسالة ماجستير للباحث/ كهينة زموش، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١١م.
٣٢	الدلالات القرآنية، د / محمد حسن جبل، ط: التركي طنطا ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م
٣٣	دلالة السياق وأثرها في أسباب ورود الحديث النبوي، رسالة دكتوراه، إعداد الباحث/ محمد السيد سيد أحمد إبراهيم، كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨م
٣٤	الدلالة السياقية عند اللغويين، د/ عواطف كنوش المصطفى، ط: دار السياب، لندن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٣٥	دلالـه السـياق بـين التـراث وعلـم اللغـة الحـديث، د/عبـدالفتاح البركـاوي، دار المنار بالقاهرة/ ط ١ / ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٣٦	دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان، ترجمة د/كمال بشر ، مكتبة الشباب.
٣٧	سنن أبي داود لأبي داود السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) تح: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م
٣٨	السـياق والـنص: استقصـاء دور السـياق فـي تحقيـق التماسـك النصـي. أ.فطومة لحمادي، مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد/ الثاني والثالث ، ٢٠٠٨م
٣٩	شـمس العلـوم ودواء كـلام العـرب مـن الكلـوم: لنشـوان الحميـري (ت: ٥٧٣هـ) تح: د/ حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د/ يوسـف محمـد عبـد الله، دار الفكـر المعاصـر (بيـروت – لبنـان) دار الفكر (دمشق – سورية) ط١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.
٤٠	الصـحاح تـاج اللغـة وصـحاح العربيـة، الجـوهري (ت: ٣٩٣هـ)، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين – بيروت، الرابعة ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م
٤١	صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، دار طوق النجاة –بيروت ط١، ١٤٢٢هـ.
٤٢	علم لغة النص "المفاهيم والاتجاهات" د/سعيد بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧م.
٤٣	العين، الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط: دار ومكتبة الهلال.

٤٤	غريب القرآن لأبي محمد الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) تح/ أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م
٤٥	فصول في علم الدلالة، د/ الموافي الرفاعي، طبعة خاصة بالمؤلف (٢٠١٦م)
٤٦	قصص الأنبياء لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) تح: مصطفى عبد الواحد، الناشر: مطبعة دار التأليف – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م
٤٧	كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الأولى (١٩٩٦م)
٤٨	الكلمة دراسة لغوية معجمية، د/ حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٨م.
٤٩	لسان العرب، لابن منظور (ت: ٧١١هـ) دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ
٥٠	لسانيات النص "مدخل إلى انسجام الخطاب" ، د/ محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
٥١	اللغة والمعنى والسياق جون لاينز، ترجمة: د/ عباس صادق الوهاب، مراجعة: د/ يوئيل عزيز، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد – العراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٥٢	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) تح/ محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ

٥٣	مجمع البحرين ومطلع النيرين، لفخر الدين الطريحي (ت: ١٠٨٥ هـ)/ تح: السيد أحمد الحسيني، المرتضوي، طهران– إيران، ط٢ ، ١٣٦٥ هـ.
٥٤	المحيط في اللغة ابن عباد، ت: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط: عالم الكتب –بيروت / لبنان: الأولى (١٤١٤هـ –١٩٩٤م).
٥٥	مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١ م
٥٦	مدخل إلى علم لغة النص دي بو جراند ودريسلر، إلهام أبو غزالة، على خليل
٥٧	مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) تح/ أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م
٥٨	المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: للفيومي (ت: نحو ٧٧٠هـ) : المكتبة العلمية، بيروت.
٥٩	معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت: ٣١١هـ) تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب –بيروت، ط١ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٦٠	المعايير النصية لدى روبرت دي بو جراند في ديوان همسات الصبا للشاعر الليبي رجب الماجري ، رسالة دكتوراه، للباحث/ ميلود مصطفى عاشور، مخطوط بكلية دراسات اللغات الرئيسة، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، نيلاي، ٢٠١٥م.
٦١	المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، لفقيه العربية العلامة د./ محمد حسن جبل (ت: ١٤٣٦هـ)، قدم له وعلق على بعض مسائله د/ عبد الكريم محمد جبل، مركز المربي، المملكة العربية، الطبعة الرابعة، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م.

٦٢	معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
٦٣	المعنى اللغوي، دراسة نظرية وتطبيقية، د / محمد حسن جبل، ط الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م مطبعة السعادة .
٦٤	المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٦٥	مقاييس اللغة لابن فارس تح د/ عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٦٦	النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بو جراند، ترجمة د: تمام حسان، عالم الكتب، ط ١ ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م.
٦٧	نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، د/ عبد النعيم خليل، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٧م.
٦٨	النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، ت: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م
٦٩	الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب المالكي (ت: ٤٣٧هـ) تح: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م
٧٠	الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي، النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ